

المذهب الظاهري ونشأته وتطوره بالمغرب والأندلس حتى نهاية الموحدين

د. عبد الباقي السيد عبد الهادي (*)

نشأة المذهب الظاهري وتطوره

نشأ المذهب الظاهري في بغداد على يد داود بن علي الأصفهاني أول من نادى به ودعا إليه من أهل السنة . ويرجع ظهور المذهب إلى عدة أسباب منها :
أولا : الإسراف في استخدام القياس والالتزام به والذي أدى إلى اتساع الشقاق من الفروع والسنن إلى الأصول ، فقد اختلف أصحاب الرأي في التوحيد وصفات الله تعالى وقدرته وفي نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار وعذاب القبر وفي اللوح المحفوظ... وغير ذلك من الأمور التي لا يعلمها إلا الله (١)

ثانيا : تأثر داود بالإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) في الأخذ بالنصوص وتعزيزها ، مع كثرة رواية السنة في عصره ؛ مما جعله يتجه للنصوص وحدها ، وذلك لأن الشافعي كان يفسر الشريعة بالنصوص مع الحمل عليها بالقياس الجلي فقط (٢) .

ثالثا : ازدهار الحركة الباطنية التي تدعو إلى ضرورة وجود إمام مستتر يعلم الناس ما ليس في وسعهم أن يتعلموه من ظاهر الآيات والأحاديث (٣) .
وفي عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م) عرفت الأندلس المذهب الظاهري على يد عبدالله بن قاسم بن هلال الذي رحل إلى المشرق والتقى بدادود بن علي ، وأدخل كتبه كلها الأندلس (٤) ، وفي عهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) صار لهذا المذهب أتباعه بفضل جهود منذر بن سعيد البلوطي قاضي القضاة الذي كان يؤثروه ويجمع كتبه ويحتج له ويأخذ نفسه ونوحيه به (٥) ، ويبدو أن جهد منذر كان مقدمة لازدهار المذهب (٦) ، وقد ظل أمر الظاهرية فرديا حتى نجح ابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) في إحياء المذهب من رفقته ، وذلك بالتصنيف والمناظرة والجدل وتنشئة تلاميذه ومريديه على أصول المذهب ، ونشر المذهب بين أصحابه ، فتابعه على ذلك جماعة اعتنقوا المذهب

(*) مدرس تاريخ إسلامي .

ودافعوا عنه ^(٧)، وبذلك تحول أمر الظاهرية من المرحلة الفردية إلى المرحلة الجماعية ، والتي كانت مقبلة لما تم في عهد الموحدين من اتخاذ دولتهم للمذهب للظاهري مذهباً رسمياً لها ، وإن كان أمر المذهب متفاوتاً ما بين إقدام وإحجام في عهد حكامها .

أما عن دخول المذهب الظاهري للمغرب فلم تمدنا المصادر التي بين أيدينا بمعلومات عن تاريخ دخوله ولا على يد من من الفقهاء ولا في عهد من من الولاة والحكام ، ولكن يمكننا أن نتوقع أن عبدالله بن قاسم الذي نشر المذهب في الأندلس كان له دور أيضاً في نشره بالمغرب أو على الأقل ترك أثراً بين المغاربة المالكيين للحديث عن المذهب الظاهري وأصوله ، وذلك أثناء رحلته من المشرق إلى الأندلس والتي حتماً كانت تمر على المغرب.

ويعني القول بالظاهر - الذي استخدمه داود والظاهرية بعده - عدم صرف معنى النص في القرآن والسنة من معناه الواضح بذاته الذي يستتبطة العقل بحكم منطوق اللغة ، إلى غيره من التأويل ما دام ليس هناك نص آخر أو إجماع يصرفه عن معناه الظاهري ^(٨) .

ويمكن أن نفسر تولد الظاهرية بالمغرب والأندلس في عدة أسباب منها:

أولاً : الثورة على المدرسة المالكية التي جمعت للنصوص ، وارتضت التقليد ، وعارضت كل محاولة للاجتهاد والتجديد ، حتى لقي أتباعها انتقاداً حاداً من أكابر المالكية المجتهدين وهو ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) ، لتقصيرهم عن علم الأصول ، وعدم قدرتهم على الترجيح بين الآراء المتعددة في المذهب ، واتهامهم من خالف قول فقهاءهم الأول بمخالفة القرآن والسنة ، وإجازتهم العمل بالروايات المتضادة في الحلال والحرام ^(٩) .

ثانياً : التقاف الناس حول كل حركة جديدة من شأنها التغيير . خاصة إذا قوبل أتباعها بالمعارضة والاضطهاد .

ثالثاً : الجهود التي بذلها محدثو الأندلس . خاصة بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ ^(١٠) في التمكن لمدرسة الحديث بإدخال الكثير من كتبها إلى الأندلس بعد عودتهم من المشرق ، وبكثرة الأحاديث والأسانيد وجدت المادة التي يعتمد عليها الفقه الظاهري .

رابعاً : ازدهار القول بالباطن فى كل من المغرب والأندلس ، ومن ثم فلابد من وجود طائفة تتصدى لأرائهم التى تحمل اللفظ أكثر مما يحتل ، وبالتالي يخرج عن مساره الصحيح ويقع التحريف ، فكانت المدرسة الظاهرية .
العلاقة بين المالكية والظاهرية قبل الموحدين :

لقى المذهب المالكي الحظوة فى المغرب والأندلس للأسباب التى أسلفناها آنفاً ، ومن ثم كان الخروج عليه خروجاً على الإسلام من وجهة نظر المالكية ، ولذا فقد تعرض كل من يخالف مذهبهم للاضطهاد والتكيد أياً كان مذهبه ، وفى حالة ما إذا وصل أحد الظاهرية إلى منصب هام فى الدولة كالقضاء - وذلك لإعجاب أحد الحكام به - كانوا يفرضون على القاضى أن يقضى بين الناس بمذهبهم المالكي ، وذلك مثل ما وقع لمنذر بن سعيد البلوطى الظاهرى ^(١١) ، وما دون ذلك كان يتعرض للاضطهاد مثل شيخ ابن حزم أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الظاهرى الذى منع من التدريس بجامع قرطبة . كما تعرض ابن حزم هو الآخر للاضطهاد فقد فرض المالكية الحظر على الفكر الحزمي ومنعوا صاحبه من التدريس بجامع قرطبة ونددوا به فى المجالس والندوات وحذروا العامة من الاستماع إلى آرائه وأقواله ، وكتبوا الكتب الكاذبة إلى الحكام لتحريضهم عليه ، وراسلوا كبار فقهاءهم بالأندلس وخارجها للرد عليه ^(١٢) .

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ، بل راسلوا ابن حزم نفسه وجمعوا من ألفاظهم أقبح الألفاظ وأسوأ العبارات واصفين إياه بالابتداع فى الدين والغفلة و البلاهة و التهمك على الصحابة و قلة الفهم والجهل والفتون وخبث السريرة وقلة الدين وضعف العقل وقلة التمييز والتحصيل فضلاً عن رميته بتبديع الصحابة . لقد ظنوا أن ذلك سوف يشبهه عن عزمه واستمراره فيما هو من الدعوة لمذهبه الظاهري ولكن هيهات ، هيهات أن يركن رجل مثله جعل من نفسه مصلحاً اجتماعياً . فقد فند كل ما اعترضوا به عليه فى أوضح وأجلى رد منبها على جهلهم بالأصول وتقليدهم للفروع ، وبعدهم عن المعرفة الصحيحة للدين مستخدماً ألفاظاً هي أشد وأنكى من ألفاظهم ^(١٣) ألم يقل عنه ابن العريف الصوفي: " لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان " ^(١٤) هذه الشدة اللسانية كان مرجعها الأكذوبات والافتراءات التى انهالت عليه من قبل خصومه من المالكية ، فضلاً عن تكوينه النفسى والجسدى . لقد تزعم لواء المعارضة جماعة من الفقهاء فى حياة ابن حزم منهم أبو الوليد الباجي ، ومحمد سعيد الميورقي الذى دعى الباجي لمناظرة ابن حزم بعد ما ساد بالجزيرة وابن الباربة الذى ناظره ابن حزم فى حضرة

أحمد بن رشيق حاكم ميورقة ووصفه بقوله: "وقد استتبنا للعين المرتد المتوجه إليكم بهذه الأكتوبات والمفتراء والفضائح المفتعلة" (١٥) ومكي بن أبي طالب الذي ناظره ابن حزم وأبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الذي ناظر ابن حزم وهجاه (١٦).

لم يرضخ ابن حزم إزاء ما تعرض له بل عمد إلى مذهبه فنقحه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه ودعا الأندلسيين لأصوله وعارض ما اعتمدت عليه المالكية من أصول تختلف مع مذهبه الظاهري من خلال المناظرة (١٧) وتصنيف الكتب في ذلك مثل: معارضته للقياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل (١٨) وانتقاده لمخالفاتهم الصحابة الذين لا يعرف لهم مخالفا في أربعة عشر مسألة من الطهارة وخمس وثلاثين مسألة من الصلاة ومسائل عدة خالفوا فيها الإجماع المتيقن وجمع ذلك في كتاب سماه (ما خالف فيه المالكية للطائفة من الصحابة) (١٩) وانتقد قولهم بأن الموطأ أجل المصنفات ، وجعله في المرتبة السابعة والعشرين بعد معظم مصنفات الحديث المشهورة ؛ كصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي ومسنند أحمد بن حنبل... إلخ. (٢٠) كما انتقد الواضحة في الفقه المالكي لعبد الملك بن حبيب والمستخرجة من الأسمعة وهي المعروفة بالعنبة لتلميذه محمد بن أحمد بن عبد العزيز المعروف بالعنبي لما فيهما من غرائب الأحاديث والأقوال وقوله أن كلا من عبد الملك بن حبيب والعنبي ليسا من ثقات أهل الحديث. في حين أن المالكية لا تتكر فضلهما واستحسانهما وتعتبرهما من أكابر فقهاءهم (٢١).

وبعد وفاة ابن حزم تزعّم لواء المعارضة ضده وضد الظاهرية (عيسى بن سهل الأسدي الجبائي) صاحب الأحكام الكبرى والذي جمع كتابا سماه "التنبيه على شنوذ ابن حزم" وصفه فيه بالجهل والضلال والفسق والكفر والإلحاد ومفارقة جماعة المسلمين ووصف جميع مصنفاته بأنها لغو يجب الإعراض عنه (٢٢) ، وهذا الكلام باطل من وجوه :

الأول : أنه وليد التعصب لمذهبه المالكي وكله خليط من الباطل لا يشوبه شائبة من الحق فكتب ابن حزم جزء كبير منها بين أيدينا وليس فيه شيء مما ذكر.

الثاني : أن معظم الفقهاء والأدباء والمحدثين والمؤرخين من المخالفين لابن حزم في المذهب و الموافقين أجمعوا على إمامته وضبطه وإحاطته بعلم النقل والعقل و لم يرمه أحد بكفر أو شرك أو بدعة ولا قالوا عنه أنه قال عن العلماء ما لم يقولوا بل أجمعوا على صدقه وعدالته وبقته في النقل عن العلماء (٢٣) بل إن أحد علماء الشافعية الكبار وصفه بقوله الإمام الأوحّد (٢٤) .

الثالث : أن جمهور المخالفين له في المذهب تلقوا كتبه بالقبول وامتدحوا ما فيها من العلم وحسبنا في ذلك قول اثنين من أكابر علماء المذهب الشافعي في بعض مصنفات ابن حزم أولهما أبو حامد الغزالي الطوسي الذي قال: " وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه و سيلان ذهنه " والثاني هو الإمام المجتهد المطلق العز بن عبد السلام الذي قال: " ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلي لابن حزم وكتاب المغنى للشيخ الموفق و تابعه الذهبي على قوله (٢٥) .

الرابع : أن قول ابن سهل السابق سرعان ما يرفضه القارئ الحصيف إذا ما علم أن من الشنع التي شنع بها على (ابن حزم) ما ذكره بكتابه (الفصل) من إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، وهى المسألة التي حسمها القرآن حسما لا يحتاج لجدل أو نقاش إذ إنها من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة .

وفى عهد المرابطين تولى القاضى المالكى أبو بكر بن العربي مهمة الحط من شأن ابن حزم والظاهرية تنفيرا للناس عن الإقبال على كتبه ومذهبه . كما شارك ابن العريف الصوفى المالكى (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) القاضى ابن العربى المالكى فى نقده للظاهرية فقد وصف الظاهرية بالمذهب المذموم الذى سقط فيه داود وأتباعه ، ولا قدوة لهم فيه إلا الخوارج فى وقت الصحابة ، وأهل النفاق فى وقت الرسالة ، وصنف مذهبهم ضمن المذاهب المنكرة والمذمومة فى الدين، بيد أن الغريب فى ابن العريف أنه قال عن الظاهرية بأنها مذهب يشبه مذهب رواة الحديث والفقهاء (٢٦) وهو الأمر الذى يذهب بنقده كله ويحملة طابع التعصب ضد منهج الفقهاء والمحدثين بأسرهم ، وليس مذهباً بعينه ، ولعل مرجع ذلك منهجه الصوفى الذى تبناه والذى لقى معارضة من قبل العديد من الفقهاء والمحدثين ، ولعل تشبيه ابن العريف للظاهرية تحديداً بالخوارج وأهل النفاق راجع إلى موقف الظاهرية وابن حزم تحديداً من الصوفية والكرامات فقد أفتى بضرورة تجنب استخدام الرمز فى النصوص الشرعية ، وهو من الأمور الأساسية عند الصوفية ، كما عارض حدوث الكرامات وهى إحدى دعائم التصوف (٢٧) كما أن ابن حزم انتقد مدرسة ابن مسرة الصوفية والتى يعتبر ابن العريف امتداداً لها (٢٨) .

لقد بلغ التقليد لمذهب مالك مبلغاً فى عهد المرابطين حتى أفضى ذلك بهم إلى التعصب وتحريم أى مذهب غير المذهب المالكى ، وتحول الأمر من مرحلة التنظير بين العلماء إلى مرحلة التطبيق فنجد علياً بن يوسف بن تاشفين لم يقرب منه سوى

من كان عنده علم بفروع مذهب مالك ، فازدهرت في عهده كتب المذهب ونبذ ما سواها ، ونسى النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (٢٩) ، ولقد تعرض أهل الظاهر في عهده للاضطهاد والتككيل لرفضهم الاعتماد على مذهب مالك ، ودعوتهم للاجتهاد واستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، ومن هؤلاء الفقيه محمد بن أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي الميورقي الأصل ، الذي ضرب بالسوط بأمر على بن يوسف ، وسجن وقتل ثم سرحه بعد فترة (٣٠) ، وفي عهد تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين نراه يتابع سياسة أبيه فيرسل رسالة إلى والي بلنسية وقاضيها وسائر الفقهاء والوزراء والصلحاء ببلنسية يدعوهم إلى الاقتصار في الأحكام والفتوى والشورى على مذهب مالك بن أنس ، ومن يعمل بغير ذلك فقد اتبع الهوى (٣١) .

لقد كان لهذه السياسة الرسمية من قبل الدولة أثر على فقهاء المالكية الذين اتفقوا فيما بينهم في عهد المرابطين على أن اعتقاد الظاهرية وإنكار القياس جرحه وبدعة ، والواقع أن الفتوى السابقة لم يتبناها سوى فقهاء المرابطين ومقلدى المالكية ، وليس أدل على ذلك من أن أحد قضاة المالكية في عهد المرابطين قبل شهادة شاهد ظاهري ، ولم يعتبره مبتدعا ، هنا هاج المالكية وماجوا ورفعوا الأمر إلى ابن رشد الجدد أحد مجتهدي ومحققى المذهب المالكي لعله يؤيد فقهاء السلطة والمقلدين فيما ذهبوا إليه ، لكن رأيه جاء مخيبا لآمالهم إذ قال: "إن كان الشاهد من أهل الاجتهاد للراسخين ويعارض العلماء في بعض وجوه القياس فليست جرحه ، وإن كان مقلدا متبعا للهوى فهي جرحه بأنه ينفي القياس" (٣٢) .

لقد ارتأى فقهاء السلطة والمتعصبون من المالكية أن يشكلوا جبهة موحدة من خلال فتوى تدين الظاهرية ، وذلك في محاولة للحد منها ومطاردة أتباعها ، ومنع المالكية من التحول إليها ، خاصة وأن الظاهرية في عهد المرابطين لم يكونوا قلة ، بل كانوا يشكلون الجناح الثاني لحركة المريدين بزعامة محمد بن الحسين الميورقي ، ومحمد بن خلف المعروف بأبي عبدالله الشبوقي ، ولقد اعترف القاضي ابن العربي المالكي نفسه بكثرة عدد الظاهرية في عهد المرابطين (٣٣) .

الجدير بالذكر أن ميورقة كانت مركزا للمذهب الظاهري في الأندلس وذلك بفضل جهود ابن حزم وأتباعه في الجزيرة في ظل حاكمها أحمد بن رشيق (٣٤) ، وظل أمر المذهب راسخا حتى بداية عهد المرابطين ، وكان للصراعات المذهبية بين المالكية والظاهرية الأثر الكبير في إثراء الحياة الفكرية في جزر البليار ، وظهور علماء من المتكلمين برعوا في علم الكلام والتوحيد ، ومن فقهاء الظاهرية الذين

اشتهروا بجدلهم مع فقهاء المالكية في عهد المرابطين محمد بن سعدون بن مرجى الميورقي (ت ٥٣٤هـ/١١٣٩م) ^(٣٥) ، ومن أبرز الصراعات المالكية الظاهرية قبل عهد الموحدين ما وقع بين فقهاء المالكية وبين ابن تومرت صاحب النزعة الظاهرية فقهيا وجنليا.

بدأت علاقة ابن تومرت بالمرابطين وفقهائهم المالكية منذ عام ٥١٤هـ/١١٢٠م حينما ارتحل إلى مراكش عاصمة المرابطين ، وفيها قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأراق الخمر وكسر آلات الطرب دون إذن أمير المسلمين على بن يوسف ، هنا تطاير خبره بأمر المسلمين فأسر بإحضاره ، وفي هذا اللقاء دعا ابن تومرت علياً بن يوسف للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ^(٣٦) وقد أطرق على بن يوسف ملياً يفكر فيما سمع وأمر بإحضار الفقهاء لمناظرة ابن تومرت واختباره ، وكان ابن تومرت عالماً بالجدل والفقه والحديث ، في حين كان فقهاء المالكية الذين حضروا لا علم لهم سوى بالفروع ، ومن ثم عجزوا عن إجابته وفهم خطابه ، وأخذتهم العزة بالإثم فدلسوا على أمير المسلمين وقالوا له: " هذا رجل خارجي مسعور أحق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس ، وإن بقي بالمدينة يفسد عقائد أهلها " فأمره أمير المسلمين بالخروج من مراكش ، عندئذ خرج ابن تومرت في مكان قرب مراكش ، وكان يأتيه بعض الطلبة يأخذون عليه ، وتكاثر أتباعه إلى ما يزيد على ألف وخمسمائة ، وكلهم موافقون له فيما قاله من طعن على المرابطين ، وكان بعض الفقهاء قد أغروا على بن يوسف بإبن تومرت وقالوا له إنه يدعو الناس إلى إمامته ، وهنا عزم على بن يوسف على قتله ، وبعث من يأتيه برأسه ، لكن أحد تلامذته كان قد سمع ذلك فنبهه ، فخرج ابن تومرت مسرعاً حتى بلغ تينملل وكان ذلك في شوال ٥١٤هـ/١١٢٠م ^(٣٧) .

عندئذ أعلن ابن تومرت ثورته على المرابطين ودارت بينه وبينهم معارك مسلحة ، وحرّبا دعائية ، وكان ابن تومرت قد وجه في البداية رسالة للمرابطين هي أول رسالة منه إليهم وصفهم فيها بالفئة الباغية والشرزمة الطاغية ودعاهم إلى تقوى الله واتباع السنة ، واختتمها بقوله: " وكتابتنا هذا إليكم إغذار وإنذار ، وقد أعز من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى " ^(٣٨) وقد اهتم ابن تومرت بالسنة في رسالته هذه باعتباره محبباً لها ، وإظهاراً لمنهجه الظاهري القائم على الدعوة للكتاب والسنة ، وتسفيها لما عليه المرابطون ؛ من اهتمام بالفروع في الأحكام وترك الكتاب والسنة ، وتسير خاتمة الرسالة إلى تطور فكر ابن تومرت من مرحلة الأمر

بالمعروف إلى مرحلة القتال وهو ما سنلاحظه في رسالته التالية؛ فقد وجه ابن تومرت رسالة إلى أتباعه - ووسمهم بجماعة أهل التوحيد - دعاهم فيها إلى جهاد المرابطين إظهاراً للدين وإحياء للسنة ، ووصف المرابطين بالمجسمين المفسدين وبالكفر والطغيان وأكل أموال اليتامى وتقريب الفجار وشاربي الخمر والعصاة ، وجعل جهادهم فرضاً على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأفتى بأن من قتل من المجسمين فهو في النار ومن قتل من الموحدين المجاهدين فهو شهيد (٣٩) .

وقد جاءت هذه الرسالة بهذا العنف وهذه الشدة على أثر اتهامات كالها فقهاء المالكية بزعامة مالك بن وهيب لابن تومرت في إطار الحرب الدعائية بين الطرفين منها: (هذا رجل يكفر الناس بالذنوب ، ويمنع من الصلاة على أهل القبلة - قتل المرابطين الذين حاربهم الموحدون - ومن تاب لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات ، ويرد المطلقة ثلاثاً إلى زوجها ، وطرح مذاهب العلماء وكتبهم وخرج من الإجماع وكفر المسلمين واستحل الحرام المجمع على تحريمه واستحل دماء المسلمين وأموالهم وحريمهم وجعل أموال المسلمين غنيمة تخمس ، كما تخمس أموال النصراني ، وقام على الأمراء ونزع يده من طاعتهم ، وقد أجمع المسلمون على تحريم القيام عليهم ووجوب طاعتهم (٤٠) ، وقد رد ابن تومرت على ذلك وبين فساد أقوالهم (٤١) .

وقد لقيت دعوة ابن تومرت صدى بالمغرب ففي مدينة فاس ما إن سمع علماؤها بدعوته القائمة على العودة إلى الكتاب والسنة ونبذ التقليد حتى قصده ، وناجح عدد منهم مثل السلاجي (ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨م) وابن الإشبيلي (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م) لنشر فكر ابن تومرت والرد على المرابطين ، واتهموه بالضعف أمام العباسيين ، الذين استسلموا لهم بالدعاء على المنابر وإرسال الشعراء إليهم. لكن هذا التأييد لقي معارضة من قبل الفقهاء المؤيدين للمرابطين مثل ابن أبي معيشه ، وابن الملجوم ، وابن داود ، وابن المقيلى (٤٢) . لقد كان المحرك الأساسي لثورة ابن تومرت ضد المرابطين هو الفقه الظاهري الثوري الذي درسه على يد الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) أحد المهتمين بالفقه الظاهري وكتب ابن حزم ، حتى إنه كان يجتمع مع أبناء ابن حزم وجماعة من الظاهرية لتصنيفها ومعرفة محتوياتها (٤٣) ، وقد استفاد ابن تومرت من الطرطوشي في الثورة على التقليد والعودة إلى الكتاب والسنة والطعن على البدع والظلم (٤٤) والخروج على الحاكم إذا وقع شيء من الجور وإن قل (٤٥) وهي المسائل التي أصلها ابن حزم ودعا إليها في كتبه.

وتجدر الإشارة إلى أن معارضة المالكية للظاهرية ترجع إلى عدة أسباب منها:
 رفض الظاهرية للرأى والقياس والاستحسان والتقليد والتعليل مما حدا بفقهاء المالكية
 إلى مجابتههم لصرفهم عن منهجهم ، ومخافة من تحول البعض من المغاربة
 والأندلسيين إلى مذهبهم ^(٤٦) ، ومنها استطالة الظاهرية على فقهاء المالكية بفضل
 القول ، ولحتم بالحجة حيث لا يجدون لهم ردا ، فضلا عن انتقاد أحدهم وهو ابن
 حزم لبعض آراء الأئمة الأربعة التي رأى مجانبتها للصواب ^(٤٧) ، والواقع أن نقده لم
 يكن لذات الأئمة كما فعل ابن س هل وابن العربي ، بل كانت ردودا على بعض
 آرائهم فحسب ، أما الأئمة فكان شديد التبجيل لهم ، ووصفهم بأنهم مسلمون فاضلون
 يلزم توقيرهم والاستغفار لهم ^(٤٨) .

ومن هذه الأسباب مطالبة الظاهرية كل مسلم بقراءة القرآن والحديث بنفسه ،
 واستخراج الأحكام ، ورفض اتباع أقوال الأئمة دون السؤال عن تبرهات والدليل
 المعتمد في الفتوى ، أضف إلى ذلك تعويل بعض الظاهرية على دراسة الفلسفة
 والمنطق ، ودعوة أحدهم وهو ابن حزم لاستخدامهما في الاستنباط الفقهي ، في حين
 أن المالكية ينظرون إليهما على أنهما سببا للضلال والإلحاد ^(٤٩) ، كما كانت حدة ابن
 حزم وإفراطه في الرد على المالكية بعنف سببا من هذه الأسباب حتى قال عنه ابن
 حبان المؤرخ الشهير : " فلم يكن يلطف بما عنده بتعريض ، ولا يذمه بتدريج ، بل
 يصك به معارضة صك الجنادل ، وينشقه أحر من الخردل " ^(٥٠) ، وقال عنه ابن
 العريف الصوفي : " لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان " ^(٥١) ، وآخر هذه الأسباب
 اجتهدات ابن حزم الفقهية التي انفرد بها وخالف جمهور الفقهاء من أهل السنة ، بل
 خالف فيها إمام مذهب داود بن علي الأصفهاني ، ومن أشهر هذه المسائل (رفضه
 لكراء الأرض جملة) ^(٥٢) ، في حين أن فقهاء المالكية يجيزون ذلك ، ومعظم
 الأراضى الأندلسية تزرع بالكراء . فكيف يسمح له بترويج مثل هذه الأفكار التي
 تصادر منابعها من منابع ثرواتهم ومصدرا من مصادر سطوتهم الفقهية .

الوضع الاقتصادي والاجتماعي للظاهرية قبل عصر الموحدين:

يعتبر منذر بن سعيد البلوطي من أوائل الظاهرية في الأندلس الذي حظى بمكانة
 اجتماعية مرموقة فقد ولى قضاء ماردة والنغور الشرقية ^(٥٣) ، ووضحت مكانته
 الاجتماعية من خلال حضوره حفل استقبال عبدالرحمن الناصر لسفراء قسطنطين
 السابع بقصر الزهراء سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ، وقد عرف منذر كيف يفيد من كل

مناسبة كي يزداد رفعة وسلطانا عند الخليفة ، فأصبح أكبر شيوخ عصره بحكم أنه أصبح قاضى الجماعة ، وسلم الناس له بذلك بحكم مركزه الوظيفى ^(٥٤) ، ولا شك أن مكانته الاجتماعية هذه حققت له رخاء اقتصاديا وجعلته في مصاف الأثرياء ، وإن ظل دائما ينهى عن الإسراف ، حتى إنه لم يستطع أن يخفى اعتراضه على ما قام به الناصر من جعل سقف قبة قصره بالزهراء من الذهب ، فنقضه الناصر لتوه ^(٥٥) ، وهكذا لم يمنع المنذر منصبه الاجتماعى من توجيه النصيح للخليفة بل والاعتراض على بعض أفعاله طالما خالفت تعاليم الإسلام وقيمه

أما ابن حزم فقد كان ذا مكانة اجتماعية مرموقة منذ صغره بحكم موقع أبيه كوزير للمنصور ابن أبى عامر ، وقد أفاد ابن حزم من ذلك حيث يقص علينا أنه دخل على الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر وهو في الثانية عشرة من عمره أى سنة ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م ^(٥٦) ، ثم يحدثنا بعد ذلك عن دخوله على عدد من خلفاء وأمراء بنى أمية وجلوسه معهم مرارا منهم هشام المؤيد ، ومحمد المهدى ، وعبدالرحمن المرتضى ^(٥٧) ، وقد ساعده وضعه الاجتماعى على الدخول لمكتبة قصر الخلافة والإفادة منها مما كان له أثره في تكوينه العلمى والفكرى ، خاصة وأنها كانت تحتوى على العديد من الكتب الفريدة التى لم يكن لها وجود في الأندلس إلا فيها ^(٥٨) .

وبلغت الوجاهة الاجتماعية بابن حزم إلى الحد الذى أصبح فيه مستشارا لعبدالرحمن المرتضى ، ثم وزيرا لعبدالرحمن المستظهر (٤١٤/١٠٢٣) ^(٥٩) كما وزر لهشام المعتد بالله ^(٦٠) ويحدثنا ابن حزم في عام (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) - وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة الأموية بالأندلس - بأنه كان متوليا منصب القضاء ^(٦١) ، وفى عهد ملوك الطوائف كان ابن حزم على صلة بأبى الأحوص معن بن محمد التجيبى (٤٣٣هـ - ٤٤٣م / ١٠٤١م - ١٠٥١م) صاحب المربة والذى طلب من ابن حزم أن يصنف له رسالة في (الوعد والوعيد وبيان الحق في ذلك من السنة والقرآن) فصنفها له ^(٦٢) ، وهو ما يشير إلى وضع ابن حزم الاجتماعى المرموق في تلك الفترة من حياته إذ كان على اتصال بأحد حكام الأندلس في تلك الفترة . كما أنه كان أحد المستشارين والوزراء الذين اعتمد عليهم أحمد بن رشيق صاحب جزيرة ميورقة في الحكم ^(٦٣) ، وهكذا يتضح أن الوضع الطبقي لابن حزم كان وضعاً أرستقراطياً شأنه شأن الطبقة الحاكمة .

وبخصوص وضعه الاقتصادي فليس أدل على الرخاء والنعيم الذي كان يتقلب فيهما ما أورده في كتابه الطوق من أنه أيام والده الوزير كان يمتلك مع أسرته دوراً في الجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة ، ودوراً في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث ، وكان يتنقل بين هذه وتلك حسب تنقلات والده الوزير ، وكانت هذه الدور تحتوى على المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة ، والجوارى والخدم ، والحدائق الغناء ^(٦٤) الأمر الذي يوضح بجلاء عظم الوضع الاقتصادي الذي كان يحيا فيه ابن حزم . كما يتضح الرخاء الاقتصادي لابن حزم أيضا من خلال امتلاكه لقرية بأكملها بما عليها من أراض ودور ، هي قرية منت ليشم والتي كانت ملكا لأسرته من قبله ^(٦٥) ، وهي التي رحل إليها في آخر أيامه وبها توفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م .

وكان أبورافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم وزيرا للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (٤٦٢-٤٨٤هـ / ١٠٦٩-١٠٩١م) ، وكان مقدما على وزرائه ^(٦٦) كما كان على صلة قوية بأمراء الدولة العبادية حتى أن أحدهم طلب منه أن يصنف كتابا عن تاريخ الأسرة ونسبها فصنف كتابه الموسوم بـ (الهادى إلى معرفة النسب العبادي) ، ولاشك أن الفضل كان يتقلب في الرخاء الاقتصادي بحكم كونه وزيرا للمعتمد ، فضلا عن أملاك أبيه لا سيما قرية منت ليشم سائلة الذكر ، ومن الظاهرية الذين كانت لهم مكانة اجتماعية واقتصادية الراضى يزيد بن المعتمد على الله بن المعتمد ، ولأه أبوه الجزيرة الخضراء ، وكان معظما للمذهب الظاهري وكتبه ، ولعله هو الذي طلب من الفضل أن يصنف له كتابا عن تاريخ الأسرة العبادية ونسبها ، خاصة بعد أن صار الراضى ظاهريا ، وأعاد لابن حزم اعتباره ، بعد أن كان جده المعتضد (٤٣٤-٤٦٢هـ / ١٠٤٢-١٠٦٩م) قد أمر بإحراق كتبه ، وربما يقوى هذا الفرض إذا علمنا أن الراضى كان شغوفاً بأنساب العرب ^(٦٧) .

وإلى جانب القضاء والوزراء والولاة كان من الظاهرية الواعظ في مسجد قرطبة مثل أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت ^(٦٨) ومنهم المقرئ والإمام في أحد المساجد مثل محمد بن شريح الرعيني (ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) تلميذ ابن حزم الذى صلى خلفه المعتضد صاحب إشبيلية في إحدى ليالى رمضان ^(٦٩) وفرج بن جديدة (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) الذى أقعده المعتضد بن عباد للإقراء بإشبيلية بالمسجد المنسوب إلى والدته ، والمحدث والفقيه الذى كان يعلم الناس الفقه والحديث مثل عبدالله بن أحمد بن سعيد بن يربوع (ت ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) ^(٧٠) ومنهم من عمل بالتجارة مثل محمد بن عبدالله بن طالب البصرى ، ومنهم من كان عاقدا للشروط والوثائق مثل

هشام بن غالب بن هشام الغافقي (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م)^(٧١) . تلك لمحة عن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية للظاهرية قبل الموحدين حاولنا قدر الاستطاعة أن نبرز من خلالها الفئات الممثلة للظاهرية ، وإن جاءت بصورة فردية ومقتضبة ، وذلك لندرة المادة العلمية المتاحة بين أيدينا .

الدولة الموحدية ومذهبها الظاهري

تبدأ هذه الدولة على يد مؤسسها محمد بن تومرت الهرغي^(٧٢) وقد ثار حوله جدل كثير من ناحية النسب هل هو بربري أم عربي قرشي أم غيره . كما اختلف المؤرخون بشأنه هل هو صاحب سنة أم صاحب بدعة^(٧٣) ، وأظن أن أفضل من حقق هذا الأمر هو العلامة ابن خلدون عندما وصفه بأنه عاد من المشرق بحرا متفجرا من العلم ، وشهابا واريا من الدين ، وأنه لم تعرف له بدعة إلا بدعة العصمة^(٧٤) أما ما روى عنه من روايات تشينه فاهل التحقيق ذكروا عدم صحتها عنه ، وكيف لا وقد قبل أهل العلم كتبه وعملوا بما فيها ، وما كان فيها من خطأ نبهوا عليه ، وبخصوص أشعرية الرجل فلم تكن أشعرية خالصة بل اخذ من الأشعرية ما يتوافق مع ظاهريته التي تبناها^(٧٥) .

تولى أمر هذه الدولة بعد ابن تومرت عبدالمؤمن بن علي ، ثم بعده يوسف ابنه وكلاهما كان ظاهريا رفض كتب الفروع ودعا الناس إلى الظاهر من القرآن والسنة . ثم جاء البطل المغوار يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن المكنى بأبي يوسف والملقب بالمنصور فأحيا المذهب الظاهري وفرضه فرضا ، وجعل التعامل به في القضاء والفتيا ، ثم سار على نهجه ابنه محمد الناصر ، ثم تتابع الخلفاء الواحد تلو الآخر سيرا على هذا النهج .

وإشكالية الحديث عن ظاهرية هذه الدولة إشكالية جد خطيرة لأمر منها : أن جل من كتب عن الدولة الموحدية من القدامى والمحدثين هم من المالكية ، ومن ثم رأيناهم جميعا يلون عنق النصوص ويذهبون بها كل مذهب لينفوا حقيقة ظاهرية الدولة ن وهو ما لم يفلحوا فيه رغم مصنفاتهم وتأصيلاتهم العديدة . أن دولة بنى مرين وفقهاء المالكية في عهدها ومن بعدها عدوا على مصنفات أهل الظاهر في عهد الموحدين فأبادوها ، وراحوا يسلبون الدولة من مذهبها الرسمي وهو الظاهري بكلمات سرعان ما يتضح بطلانها من خلال نصوص كثيرة سنطرحها على حضراتكم في هذه المقالة .

أن جل من كتب عن الدولة الموحدية فى العصر الحديث لم يكونوا من أرباب التواريخ ، ولم يطلعوا على كل ما بسطه أهل التاريخ عن هذه الدولة ، ومن ثم رأينا كل من كتب عن هذه الدولة يخلط الخلط العجيب فى مذهبها ، وصدق الحافظ ابن حجر عندما قال "من تحدث فى غير فنه اتى بالعجائب". فأحد من كتب عن الدولة يقول وتأثرت هذه الدولة بفقهاء ابن حزم فى أمور كثيرة ، ثم فى موضع آخر يقول ولم يكن لهذه الدولة تأثير بالمذهب الظاهرى إلا فى القليل النادر ، ولا يعنى هذا انها دولة ظاهرية !!؟ ومن أمثال هذا الكلام الكثير والكثير .

نأتى إلى الحقيقة التى لم يعدم الباحثون المنصفون من إثباتها وتأصيلها بالنصوص والأدلة والبراهين ، ألا وهى ظاهرية الدولة الموحدية .

وقبل الشروع فى طرح الأدلة لتأكيد هذه الحقيقة دعونى أخبركم بإسادة ان الله أعاننى فأحصيت أكثر من عشرين دليلا وبرهانا على ظاهرية الدولة ، وهو الأمر الذى دعا أحد الباحثين النابيين والمتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس وهو أستاذنا الدكتور محمود اسماعيل عبدالرازق إلى أن قال لى يوما فى لقاء علمى بالجامعة " إن ما قمت به من كشف بشأن ظاهرية الموحدين سيهيل التراب على أكثر من خمسمائة سنة درج الباحثون فيها على القول بأن هذه الدولة دولة مالكية ... ولكن اكتب وحسبى انى أثق فىك وفى تأصيلك " .

وقال باحث آخر لا يقل نباهة ولا فهما ولا علما عن الأول وهو أستاذنا الدكتور أحمد رمضان أحمد (٧٦) - رحمه الله - شيخ مؤرخى جامعة عين شمس " أنا متفق تماما مع ما ذهبنا إليه من أن الدولة الموحدية دولة ظاهرية ، لكن حاول أن لا تنحى المذهب المالكى فى عصرها ... " .

أعود بكم إلى ما ذهبنا إليه من أدلة وبراهين تؤكد ظاهرية الموحدين ، وأكتفى ببضعة براهين أسوقها على حضراتكم فى الآتى :

أولا : انتشار كتب ابن حزم الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها (٧٧) ، وكتب الظاهرية عامة فى عصرهم بما لم يكن معروفا من قبل. كما أن حكام الدولة الموحدية كانوا على علم بالفقه والأصول والحديث والدعوة للاعتماد على القرآن والسنة فى الفتيا والأحكام ، وهى الأمور التى دعا إليها المذهب الظاهرى ، وغير موجودة فى غيره ، فعلى سبيل المثال كان عبدالمؤمن بن على فقيها أصوليا محدثا جدليا (٧٨) وكان يوسف بن عبدالمؤمن على علم بالفقه والأصول وعلوم القرآن ، والحديث ، وكان

يحفظ أحد الصحيحين ^(٧٩) ، وكان المنصور فقيها محدثا أصوليا مجتهدا جديلا ، يعلم الفقهاء والقضاة والكتّاب لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة ^(٨٠) .

ثانيا : اعتماد الدولة في أحكامها على الفقه الظاهري فقد قتل المنصور الموحدى أخا له لخروجه عليه ومطالبته بالخلافة ^(٨١) اعتمادا على فتوى لابن حزم بقتل الخليفة الآخر إذا بويع لخليفته ^(٨٢) واعتمدت الدولة مسألة التعزير في الذنوب التى لا حد فيها خاصة ترك الصلاة ، والقتل لمن شرب الخمر ^(٨٣) وجعل التعليم إجباريا على الذكور والبنات منذ عهد عبدالمؤمن بن على ، وتم تكليف العبيد بالأحكام الشرعية شأنهم شأن الأحرار ^(٨٤) والرجوع للحاكم فى أحكام القتل كقتل النفس والمرتد والمستهزئ بدين الله ^(٨٥) وهى المسائل التى انفرد المذهب الظاهري بها دون غيره من المذاهب ، وأصلها الظاهرية فى كتبهم .

ثالثا : دعوة حكام الموحدين لعقد مجادلات ومحاورات لترجيح المذهب الظاهري على المالكي ، ومن ذلك المجلس الذى ذكره ابن حجر الهيتمي لأحد الأمراء دون ذكر اسمه ^(٨٦) ، وما وقع فى عهد عبدالمؤمن بن على من جمع علماء الظاهرية والمالكية للمناظرة حول عدة مسائل فى مدونة سحنون ، ومنها مسألة إعادة الصلاة فى الوقت والتى يرفضها الظاهرية ، وانتهى المجلس بإقرار رأى الظاهرية بعد كلام دار بين ابن زرقون المالكي وأحد الظاهرية ، وقد عبر ابن زرقون عن ظاهريّة عبدالمؤمن بقوله : " كل ذلك مراده أن يحمل للناس على مذهب ابن حزم " ^(٨٧) .

ولنصغ إلى ابن زرقون الذى شهد واقعة جمع عبدالمؤمن بن على للفقهاء وذلك لحمل الناس على المذهب الظاهري فيحدثنا بقوله " كنت فيمن جمعهم - أى عبدالمؤمن - فقام على رأسه كاتبه ووزيره أبوجعفر ابن عطية فخطب خطبة مختصرة ، ثم رد رأسه إلى الفقهاء ، وقال لهم : بلغ سيدنا أن قوما من أولى العلم ، تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وصاروا يحكمون بين الناس ، ويفتون بهذه الفروع والمسائل التى لا أصل لها فى الشرع ، وقد أمر أن من فعل ذلك بعد هذا اليوم ، ونظر فى شيء من الفروع والمسائل ، عوقب العقاب الشديد ، وفعل به كذا وكذا وسكت ، ورفع الأمير عبدالمؤمن رأسه إليه وأشار عليه بالحلوس فجلس ، وقال : سمعتم ما قال ؟ قال له الطلبة نعم. قال : وسمعنا أن عند القوم تأليفا من هذه الفروع يسمونه الكتاب - يعنى المدونة - وأنهم إذا قال لهم قائل مسألة من السنة ولم تكن فيه ، أو مخالفة له قالوا : ما هذا فى الكتاب أو ما هو مذهب الكتاب وليس ثمة كتاب يرجع إليه إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأرعد

وأبرق فى التخويف والتحذير من النظر فى هذه الكتب ، والفقهاء سكوت . ثم قال : ومن العجيب أنهم يقولون أقوالا برأيهم وليست من الشرع ، فيقولون من طرأ عليه خلل فى صلاته يعيد فى الوقت ويتحكمون فى دين الله تعالى ، لأنها إما صحيحة فلا إعادة ، وإما باطلة فيعيد أبدا ، فيا ليت شعرى من أين أخذوه فصمت القوم ولم يجبه أحد ، لحدة الأمر والإنكار... ، ثم قام ابن زرقون وحاول أن يجيب عبدالمؤمن ويحل له الإشكال إلى أن قال " يا سيدى جميع ما فى الكتاب - يعنى المدونة- مبنى على الكتاب والسنة ، وأقوال السلف والإجماع ، وإنما اختصره الفقهاء تقريبا لمن ينظر فيه من المتعلمين والطلابين ، فانطلقت ألسنة الفقهاء الحاضرين حينئذ ووافقونى على ما قلت - أى ابن زرقون- قال ابن زرقون ثم دعا - أى عبدالمؤمن- فقال : اللهم وفقنا يا رب العالمين ، وقام إلى منزله... " (٨٨) .

والمدقق فى كلام ابن حزم وكلام عبدالمؤمن السابق يتضح له أن الأخير كان يتكلم بلسان ابن حزم ، وما كان هدفه من طرح هذه المسألة بالذات إلا إظهار فساد المذهب الفروعى وحمل الناس على الظاهر خاصة وأن هذه المسألة طرحها سحنون فى المدونة بدون حجج ولا براهين وجعل عنوانها " باب ما تعاد منه الصلاة فى الوقت " (٨٩) .

أضف إلى ذلك أن سكوت عبدالمؤمن فى نهاية الجلسة وقيامه إلى منزله ليس معناه أنه أقر فقهاء المالكية على قولهم بخصوص المدونة ، بل لأنه ما قبل منهم الكلام ، ومن ثم لما وجد اتفاقهم على قول ابن زرقون وإصرارهم على المذهب المالكى تراجع عن حملهم على المذهب الظاهرى خشية الثورة عليه ، إذ كان يعلم مكانتهم فى نفوس أهل المغرب (٩٠) ، لكن ظل هو ومن حوله متمسكين بالمذهب الظاهرى إلى أن تأتى فرصة فرضه والعمل به ، وقد أكد المراكشى ذلك بقوله عند حديثه عن المنصور " وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا - يعنى المنصور- " (٩١) ، ومن هذه المحاورات ما وقع بين يوسف بن عبدالمؤمن ، وأبى بكر بن الجد المالكى حول كتاب ابن يونس المالكى ، وما فيه من أقوال متعددة وآراء مختلفة ، وانتهى الأمر إلى قول يوسف لا بن الجد ليس إلا المصحف وسنن أبى داود (إشارة إلى كتب الحديث) (٩٢) .

رابعاً : اعتماد الدولة فى القضاء والفتيا والأحكام على القرآن والسنة والإجماع ،
وهى الأصول التى اعتمدها المذهب الظاهرى ، وقد كتب حكام الدولة الرسائل للقضاة
والعمال بخصوص هذا الشأن ومن ذلك رسالة المأمون للفتية أبى محمد عند توليته
قضاء شريش ، ورسالة الرشيد لأبى محمد القاضى بشرىش ، وأخرى لقاض أمره
أيضاً بالاعتماد على القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد ، ولقد سبق المأمون والرشيد
فى هذا الأمر يوسف بن عبدالمؤمن ، أضاف إلى ذلك ما أعلنه المرتضى فى رسالة
لأهل سبتة جاء فيها (وما تعبدنا ربنا - جلا وعلا- إلا بالظاهر)^(٩٣) وهو القول
الذى طالما كرره ابن حزم والظاهرية مرارا فى كتبهم ، وهذا القول يوضح أن الدولة
ظلت حتى النهاية متبينة للمذهب الظاهرى ، إذ إن المرتضى كان الحاكم قبل الأخير
فى تاريخ الدولة ، أضاف إلى ذلك ما قام به المنصور الموحدى من أمر جماعة من
العلماء المحدثين بجمع مجموعة من الأحاديث من كتب السنة ، وأخذ الناس على
حفظها حتى حفظها العوام ، وكان يجعل لمن يحفظ ذلك جعلا من الكساء والأموال ،
ونال عنده طلبه الحديث حظوة كبيرة ، وكان لهم ملجا وملاذا^(٩٤) .

خامساً : اتخاذ الدولة قضاء ظاهرى المذهب كأحمد بن يزيد بن عبدالرحمن بن
بقي بن مخلد الذى تولى قضاء مراکش ، ثم قرطبة وكانت أحكامه على المذهب
الظاهرى ، وابن مضاء ، وابن نحية الكلبي ، وغيرهم كثير ، وبلغ من حرص
المنصور على نشر المذهب الظاهرى أن اتخذ لابنيه مؤدبا ظاهريا وهو أبى سليمان بن
حوط الله الغرناطى الذى كان قد تولى قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا
وميورقة ، وذلك لينشئهم على أصول المذهب^(٩٥) .

وقد أثمرت سياسة المنصور هذه إذ إن ابنه الناصر لما فتح ميورقة واستردها
من بنى غانية المالكية حرص على أن يولى عليها قاضيا ظاهريا وهو ابن حوط الله
ليحافظ على المذهب الظاهرى بالجزيرة ويعيده إلى سابق عهده كما كان أيام ابن
حزم^(٩٦) ، بل إن القضاة أنفسهم كانوا إذا استأبوا عنهم أحدا فى الأحكام يختارونه من
الظاهرية مثل أبى الحسن على بن عبدالله بن يوسف بن خطاب المعافى قاضى
إشبيلية (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) والذى استأب القضاة كثيرا فى الأحكام^(٩٧) ، وقد أكد
صاحب بيوتات فاس سياسة الدولة الموحدية بتولية قضاة لا يحكمون إلا بالظاهرية
فى قوله " ولما قلدوا القضاء بالمغرب إلى قاضى القضاء عبدالله بن طاهر الصقلى
الحسينى أمره أن يأمر القضاة بالمغرب أن يحكموا بمحصل الظاهرية ، فامتلأوا

أمره ، وصاروا لا يحكمون إلا بمحض الظاهرية، وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم" (١٨) .

سادسا : أن ابن تومرت مزج دعوته بالمذهب الظاهري في الجانب الفقهي ليحارب به المرابطين كما حارب به ابن حزم المالكية (١٩) حيث ذهب ابن تومرت إلى قرطبة وهناك تشبع بتعاليم ابن حزم (١٠٠) ومنها أن الشريعة لا تثبت بالعقل وأن أصولها تنحصر في القرآن والسنة ، ولم يعتبر القياس والإجماع الذي لا نص يؤيده من تلك الأصول بل عمد إلى حجج القائلين بالقياس وأبطلها ، واهتم بدراسة الأصول دون الفروع وأبطل الاعتماد على الشك والظن والتقليد ودعا إلى التأصيل الشرعي للأحكام من نصوص القرآن والسنة ، كما دعا إلى الجهاد ضد القوى التي عملت على نشر المنكر ، وقام المنكرات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠١) .

بل إن المطلع على كتاب المهدي محمد بن تومرت سرعان ما يتضح له أثر الفكر الظاهري عليه ، إذ أنه عبارة عن دعوة للعودة إلى الكتاب والسنة ، حيث بوب كتابه وأفتى في كل مسألة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية (١٠٢) ، بل إن ابن تومرت خطا خطوة أكدت ظاهريته حينما أمر بقطع كتب الفروع الفقهية وحرقها على قول شارح كتاب أعز ما يطلب (١٠٣) وهو ما أكدته ابن الخطيب حينما قال إن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأي والتقليد (١٠٤) وكذا أثبت الونشريسي ظاهريته (١٠٥) ، بل إن صاحب بيوطات فاس كان أكثر جرأة وصراحة حينما صرح بظاهرية دولة الموحدين من أول ظهورها حتى انتهائها حينما قال "إن ملوك الموحدين تحلوا بالمذهب المعروف لهم ، تابعين للمهدي رئيسهم الأول القائل .. بإنكار الرأي في الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ... وجروا على ذلك السنن بطول أيامهم إلى أن انقرضوا ، أولهم في ذلك مهديهم أول ملوكهم ..." (١٠٦) وهذا القول أكدته صاحب كتاب الإعلام (١٠٧) ، وباستقراء تاريخ الدولة الموحدية نجد أن كل من عبد المؤمن بن علي (١٠٨) والمنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن (١٠٩) والناصر بن المنصور (١١٠) قد تابعوا ابن تومرت في تقطيع كتب الفروع وإحراقها وتغيير الناس منها وحمل الناس على محض الظاهرية.

سابعا : كثرة الظاهرية في عهد الموحدين حتى شكلوا تجمعا ضد المالكية ، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل ومنهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني قاضي الجماعة في عهد المنصور الموحدي وابنه محمد الناصر ٥٩٥هـ - ٦١١هـ / ١١٩٩م - ٦١٤م الذي عرف بتعصبه لابن حزم ، وإبراهيم بن

يعقوب المنصور الموحدى الذى ولى على إشبيلية مرتين ووزر لأخيه محمد الناصر، وكان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية ، وعلى بن عبدالله بن يوسف قاضى إشبيلية ^(١١١) ، وعبد المنعم بن محمد بن عبدالرحيم الخزرجى الذى تولى قضاء غرناطة وجزيرة شقر ومدينة وادى آش وجيان ، ثم تولى الحسبة والشرطة فى عهد المنصور الموحدى ^(١١٢) .

ومن الظاهرية أبو بكر محمد بن علي بن العربي الصوفي الظاهري صاحب الفتوحات المكية المشهور بمحيي الدين بن عربي والشيخ الأكبر وبابن أفلاطون وقد أصطلح أهل المشرق علي ذكره بغير ألف ولام تمييزا له عن القاضي أبي بكر بن العربي المالكي خصم الظاهرية . سمع كتب ابن حزم من شيخه عبد الحق الإشبيلي ، واهتم بنشرها والتعليق عليها ، وأثر عنه رؤيا حدث عنها بقوله : " رأيت النبي صلي الله عليه وسلم فى المنام وقد عانقه أبو محمد بن حزم المحدث فغاب الواحد فى الآخر فلم نر إلا واحدا ، وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام فهذه غاية الوصلة " ^(١١٣) ، وهذه الرؤيا تشير إلي أن المعتق لفكر ابن حزم معتقا لفكر النبي صلي الله عليه وسلم . بيد أن ظاهرية ابن العربي لم تكن كظاهرية ابن حزم فالأول قصرها علي العبادات وسلك فى الاعتقادات مسلك المتصوفة أصحاب الباطن ، والثاني طبق ظاهريته علي العبادات والاعتقادات فى آن واحد، وهذا شأن غريب من ظاهري يعد رأس أهل الباطن من الصوفية ^(١١٤) .

ومن الظاهرية فى عهد الموحدين أحمد بن الرحمن بن محمد بن مضاء القرطبي قاضى القضاة بدولتهم وصاحب كتاب الرد علي النحاة، والمشرق فى النحو، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان ، وقد صنفهم لتأصيل مذهب جديد فى النحو يعارض فيه النحو المشرقي الغارق فى التأويل بناء علي منهج ظاهري يقوم علي إلغاء القياس والتعليل وإلغاء نظريات وعمل كثيرة فى النحو ^(١١٥) ، وعبدالكريم بن عبدالملك بنى عبدالله البجائى (من أهل القرن السابع الهجرى) كان معروفا عند خلفاء بنى عبدالمؤمن ، وإليه كان مرجع الفتيا وعلى قوله العمل ^(١١٦) .

ثامنا : معاقبة حكامها بالحبس لمن يتعرض بالنقد الهدام لابن حزم ومذهبه ، ومن يدعو إلى التقليد وكتب للفروع وذلك مثل ما حدث لمحمد بن سعيد بن أحمد الأتصاري المعروف بابن زرقون بسبب تعصبه للمذهب المالكي وانتقاده لابن حزم انتقاصا لقرنه وليس تقويما فى كتابه (المعلى فى الرد على المحلى والمجلى لابن حزم) ، وتدرسه لكتب للفروع وقد نهى عنها المنصور ^(١١٧) ، والقاضى أبوبكر بن

العربى المالكى الذى انتقد ابن حزم فى رسالته له أسماها (الغرة) انتقد فيها كتاب (الدرّة فى الاعتقاد) لابن حزم ^(١١٨) ، وأبو بكر الجبائى (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م) الذى سجنه المنصور بسبب دعوته للتقليد ^(١١٩) وأبو بكر محمد بن على بن خلف التجيبى الإشبيلى (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م) الذى وشى به للمنصور أيام ألزم الناس بالآثر والظاهر فسجن مع ابن زرقون وعرض للقتل لكنه خلاص من النكبة فلزم داره حتى مات ^(١٢٠) .

وكانت لهذه السياسة آثار بعيدة فى زيادة الظاهريين والمهتمين بالفكر الحزمى وهو ما يقرره ابن العربى المالكى الذى وصف كثرة الظاهرية فى صدر دولة الموحدين بقوله " وجبت القول بالظاهر قد ملأ المغرب " ^(١٢١) وأكد ذلك كل من عقيل بن عطية للقضاعى ، والمراكشى صاحب (المعجب) حيث يقول القضاعى عن الطائفة الكبيرة التى اتبعت ابن حزم فى عصر الموحدين : " تعظمه تعظيما مفرطاً بحيث تقلده فى جميع أقواله ، ولا ترى مخالفته فى شىء من مذهبه وإذا ظهر لها فى كلامه الخطأ البين والوهم الصراح لم تقبله ، وأحالت بالوهم والخطأ على من يتعاطى الرد عليه أو على نفسها بالعجز عن الانتصار لذلك القول المردود " ^(١٢٢) ، ويقول المراكشى فى حدود سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م فى ختام ترجمته لابن حزم : " وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل ، وإن كانت قاطعة للنسق مزيجة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد فيما علمت ، وقد كثر مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم) ^(١٢٣) ، ومن كلام المراكشى يتضح أن المذهب الظاهرى ظل مذهباً رسمياً للدولة الموحدية حتى سقوطها ، إذ إن كلامه كان بعد وفاة المنصور الموحدى بأكثر من ربع قرن ، وفى ذلك رد على من ادعى أن الدولة تبنت المذهب الظاهرى فى عهد المنصور فقط ثم سرعان ما زال المذهب بزواله ^(١٢٤) .

تاسعا : أن مشايخ الموحدين قدموا المنصور بن يوسف للخلافة ، رغم معرفتهم أنه ظاهرى ، وكان مشهورا بظاهريته أيام كونه وزيرا فى عهد أبيه ^(١٢٥) ، ولو كان لهؤلاء المشايخ نهجا مذهبيا غير المذهب الظاهرى لما قدموا المنصور ، ولعارضوا من قدمه أصلا ، كما كان الحال فى عهد المرابطين المالكية الذين اعتبروا أن مذهب الظاهرية بدعة ، ورفضوا تولية أى ظاهرى منصب من المناصب الهامة فى الدولة ^(١٢٦) ، كما أن محمد الناصر بن المنصور استوزر أخاه إبراهيم بن

المنصور الذى كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية على حد قول المراكشى، وقد ظل إبراهيم فى الوزارة حتى عام ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م ثم ولاه الناصر على إشبيلية^(١٢٧)، وهذا الذى فعله الناصر يؤكد خطأ ما ذهب إليه البعض من أن الدولة كانت ظاهرية فقط فى عهد المنصور، ويبطله أيضا قول صاحب بيوتات فاس بان الناصر كان كأبيه لا يحكم إلا بمحض الظاهرية، وأن دولة الموحدين كلها من بدايتها إلى نهايتها كانت دولة ظاهرية كما أسلفنا^(١٢٨)، ولو كانت الدولة غير ظاهرية لما سكت شيوخ الموحدين عن هذا التمكن للظاهرية ورجالها.

أضف إلى ذلك حرص حكام الموحدين للدفاع عن ابن حزم والمذهب الظاهرى وتشجيع علماء الظاهرية للرد على منتقدى ابن حزم والمذهب الظاهرى مثل أحمد بن محمد بن حزم المنحجى الذى صنف كتابا أسماه (الزوايغ والدوامغ) انتقد فيه أبا بكر بن العربى المالكى فى كتابه الذى رد فيه على ابن حزم والموسوم باسم (الدواهى والنواهى فى الرد على ابن حزم)، وقد أتى أحمد بن محمد بن حزم على كل شبهة روج لها ابن العربى، وأبطل كل مقولة ردها فى كتابه هذا^(١٢٩)، هذا فضلا عن حرصهم على العناية والاهتمام البالغ بفقهاء الظاهرية مثل الحافظ إبراهيم بن خلف السنهاورى الدمشقى (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) الذى دخل الأندلس والمغرب فالتف حوله جماعة من الظاهرية درسوا على يديه ورووا عنه مثل ابن حوط الله الظاهرى، وابنه محمد، وأبو العباس النباتى الظاهرى، وابن القطان الفاسى المالكى صاحب النزعة الظاهرية، وولد ابن القطان، وليس أدل على عناية الموحدين بالسنهاورى أنه لما وقع فى أسر النصارى خلصه محمد الناصر بن المنصور وأحسن إليه، أضف إلى ذلك حرص حكام وولاة الموحدين على تقريب علماء الظاهرية وأئمتها منهم مثل المنتصر بالله حاكم بجاية الذى استحسن جهود ابن سيد الناس اليعمرى الظاهرى (ت ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) وآثاره للتمكن للمذهب الظاهرى ببجاية فقرب منزله وأجزل عطيته وجازته، وكان من أخص الحاضرين بمجلسه^(١٣٠).

عاشرا : أن المعاصرين للأحداث من المؤرخين والفقهاء ومن جاء بعدهم أقروا بأن الدولة الموحدية كانت دولة ظاهرية تحتكم للفقهاء الظاهرى، وقد أسلفنا قول القضاعى المالكى، وقول المراكشى عن ابن حزم وكثرة أتباعه فى عهد الموحدين، وكثرة ذكره على ألسنة العلماء والحكام مما هو غنى عن إعادته.

وللمراكشى شهادة أخرى توضح ظاهرية الدولة الموحدية قال فيها عن المنصور الموحدى " وفى أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب

بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله والقرآن... وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ... وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا - يعنى المنصور - " (١٣١) ، فهذه شهادة مؤرخ معاصر للأحداث يؤكد على أن هدف كل من عبدالمؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور هو حمل الناس على المذهب الظاهرى ، ويؤكد ذلك شهادة ابن زرقون المالكى التى أسلفنا ذكرها بأن عبدالمؤمن بن على كان هدفه من المناظرات بين الظاهرية والمالكية حمل الناس على الظاهر ؛ وشهادة ابن حصويه السرخسى للدمشقى (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) الذى رحل إلى المغرب وأقام بمراكش عند المنصور الموحدى وأخبر بأن الفقهاء كانوا ينسبون المنصور إلى مذهب الظاهر (١٣٢) .

وهذا صاحب بيوئات فاس المتوفى فى العصر المرينى يقول " إن ملوك الموحدين تحلوا بالمذهب المعروف لهم ، تابعين للمهدى رئيسهم الأول القائل باعتقاده الفاسد بإنكار الرأى فى الفروع الفقهاء والعمل على محض الظاهرية ... وجروا على ذلك للسنن بطول أيامهم " (١٣٣) ، وقد وافقه على ذلك صاحب كتاب الإعلام (١٣٤) ، وفى موضع آخر نرى صاحب بيوئات فاس يؤكد على ظاهرية الدولة الموحدية من بدايتها إلى نهايتها فى الحكم والقضاء وخلافه بقوله " ولما ولى يعقوب المرينى المذكور وطلب منه أهل المغرب الرجوع فى القضاء إلى مذهب مالك عن طيب أنفسهم ، أمر قضاء المغرب بذلك وترك مذهب الظاهرية " (١٣٥) ، وهذا النص واضح وجلى على استمرار ظاهرية الدولة حتى عصر يعقوب المرينى الذى حكم من سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.

وممن أكد على ظاهرية المنصور والدولة الموحدية ابن جزى الغرناطى (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) حيث قال " المنصور أبويوسف يعقوب ، كان عالما محدثا ألف كتاب الترغيب فى الصلاة ، وحمل الناس على الظاهرية ، وأحرق كتب المالكية " (١٣٦) ، والحافظ الذهبى (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) الذى قال عن المنصور " ألزم الناس باخذ الفقه من الكتاب والسنن على طريقة أهل الظاهر ، فنشا الطلبة على هذا بالمغرب بعد سنة ثمانين وخمسمائة " (١٣٧) والشاطبى المالكى (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) الذى قال عن مذهب ابن تومرت " وكان مذهبه البدعة الظاهرية " (١٣٨) وفى موضع آخر ينسب الموحدين للظاهرية المحضة بقوله " فمزقوا

كتب المالكية وسموها كتب الرأى ، ونكلوا بجملة من الفضلاء بسبب أخذهم فى الشريعة بمذهب مالك ، وكانوا مرتكبين للظاهرية المحضة ... وثبتت زمانا طويلا ، ثم ذهب منها جملة ، وبقيت أخرى منها إلى اليوم " (١٣٩) . وذهب للنباهى المالى إلى الأندلس إلى ظاهرية المنصور الموحدى ودولته أيضا (١٤٠) ، وكذلك وصف ابن فرحون المالكى (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) دولة بنى عبدالمؤمن بالظاهرية كما سبق (١٤١) ، وقد سبق ذكر كلام البرزالى عن ظاهرية الموحدين ، وكذا وصف الونشريسى (٩١٤هـ / ١٥٠٨م) ابن تومرت بالظاهرى فقال " ومنها ما أحدثه المهدي الظاهرى محمد بن تومرت " (١٤٢) ، وذهب ابن العماد الحنبلى إلى ظاهرية الموحدين (١٤٣) ، ومثله ابن رأس العسكرى (ت ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م) ، والشيخ عlish المالكى (ت ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م) كما سبق ، وابن خضراء السلاوى (١٤٤) .

وقد ذهب إلى هذا الرأى - ظاهرية ابن تومرت والموحدين - جماعة من الباحثين المحدثين منهم الأسبائى آنخل جونثالث بالنثيا (١٤٥) ، ومحمد المنونى المغربى (١٤٦) ، ومحمد عبدالله عنان (١٤٧) ، والحجوى الثعالبى الفاسى (١٤٨) ، وعبدالحفيظ الفاسى ، ومحمد زاهد الكوثرى ، وسعيد الأفغانى ، وسعيد أعراب ، والدكتور إحسان عباس ، والدكتور شوقى ضيف ، وفؤاد سزكين ، وبطرس البستانى ، والدكتور عباس الجراوى ، وأحمد أمين (١٤٩) ، ومراجع عقيلة الغناى (١٥٠) ، والإمام محمد أبوزهرة (١٥١) ، وابن عقيل الظاهرى (١٥٢) ، والدكتور زكريا إبراهيم (١٥٣) ، والدكتور فاروق عبدالمعطى (١٥٤) ، والدكتور محمد إبراهيم الفيومى (١٥٥) ، والدكتور حسان محمد حسان (١٥٦) ، والعلامة محمد بن الأمين بوخبزة الحسنى التطوانى الظاهرى ، والدكتور توفيق الغلبزورى (١٥٧) والباحث النابه فى تراث ابن حزم سمير قنورى (١٥٨) ، وغيرهم كثير مما لم نقف عليهم ، ولا شك أن العرض السابق يوضح خطأ بعض الباحثين فيما ذهب إليه من عدم تأثر الموحدين بالفقه الظاهرى الحزمى (١٥٩) .

أكتفى بهذا القدر وأعدكم بأن آتيكم بما هو أجلى وأوضح مما طرحته عليكم ، خاصة وأنا بصدد نشر أطروحة للدكتوراة ، فضلا عن إعداد كتاب عن المذهب الظاهرى تحت مسمى " دراسات فى المذهب الظاهرى " ضمنته فضلا عن ظاهرية الموحدين .

دوافع اختيار الموحدين للمذهب الظاهري مذهباً رسمياً .

اتخذ حكام الموحدين من المذهب الظاهري مذهباً رسمياً لهم خاصة في عهد أبى يوسف يعقوب المنصور الذى عمم العمل بالمذهب فى الفتيا والقضاء وغيرهما بالمغرب والأندلس، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة منها :
أولاً : أن الفتاوى الشرعية التى تصدر عن فقهاء الأندلس لا تعتمد على القرآن والسنة مباشرة، وإنما على مذهب مالك، حتى أن المصدر الإلهي قد تتوسى تماماً^(١٦٠).

ثانياً : الإعجاب الذى كان يكنه المهدي محمد بن تومرت مؤسس الدولة. لابن حزم وتأثره به فى عدة مسائل تعتبر قوام مذهبه الدينى، مثل قوله بأن الشريعة لا تثبت بالعقل، وانحصار أصولها فى القرآن والسنة وغيرها^(١٦١) وتابعه فى ذلك كل من عبدالمؤمن بن على، ويوسف ابنه، وحفيده المنصور بل وباقى الحكام^(١٦٢) .

ثالثاً : الخلافات فى كتب الفروع حول المسألة الواحدة، والتى أدت إلى ضياع الحق وإجهاد الناس، خاصة المقلدين فى التعرف على أوجه الصواب من دينهم ؛ مما كان له أثر كبير فى تمسك هذه الدولة بالمذهب الظاهري.

رابعاً : انتشار مذهب المجسمة الذى يفسر الآيات القرآنية التى بها تشبيه للذات الإلهية تفسيراً حرفياً^(١٦٣) .

خامساً : عواطف المالكية الجياشة على انقراض الدول المرابطية صاحبة الانتصار الأكبر على النصارى فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، والتى ضمنت بقاء المسلمين بالأندلس نحو أربعة قرون تالية، وكان ذلك أحد الأسباب التى دفعت مؤسس الدولة الموحدية إلى تغيير المذهب المالكي الذى اعتنقه الدولة المرابطية إلى المذهب الظاهري أكثر المذاهب معارضة له^(١٦٤) .

سادساً : أن ابن تومرت لم ينس ما تعرض له فى مراكز على يد فقهاء المالكية فى عهد على بن يوسف ، ووشايتهم به لديه حتى أمر بقتله ، لولا خروجه إلى تينمل، كان هذا فى الوقت الذى لقي فيه ابن تومرت تأييد جماعة من الظاهرية وافقوه على دعوته ، خاصة ما كان من فقهاء فاس كما سبق ، فضلاً عن أن ابن تومرت أخذ على عاتقه نشر التوحيد الكلامي القائم على التأويل ، وهو ما وجد معارضة شديدة من فقهاء المالكية ، فى حين كان ابن حزم وهو أحد أقطاب الظاهرية ومجدد المذهب ، يدعو إلى التوحيد الكلامي ، وله أقوال حول الآيات المتشابهة بسطها فى كتابه الفصل^(١٦٥) ، بل له كتاب مفصل فى علم الكلام أسماه (علم الكلام على مذهب أهل

السنة والجماعة) ، الأمر الذي دفع ابن تومرت إلى تبني المذهب الظاهري تأييدا لجهوده في نشر علم الكلام ، أضف إلى ذلك أن ابن تومرت تلقى أصول المذهب الظاهري في قرطبة . كما درس المذهب على يد الطرطوشي أحد المهتمين بالفقه الظاهري وكتب ابن حزم^(١٦٦) ، فوجد في المذهب أمورا تتوافق مع عقليته وتفكيره مثل الثورة على الحاكم الجائر ، ورفض القياس والظن في الأحكام فاعتمده في الفقه وفي بعض أمور العقيدة ، وآخر هذه الأسباب تربية المنصور بن يوسف تربية ظاهرية ، حتى إنه نشأ فوجد أباه قد قلدا ظاهريا القضاء وهو أحمد بن مضاء ، ثم جعله قاضي قضاة^(١٦٧) ، فضلا عن إيداء يوسف وأبيه عبدالمؤمن إعجابهما بالمذهب الظاهري ورغبتهما في نشره والقضاء على كُتُب الفروع ، الأمر الذي دفع المنصور إلى هذا المذهب دفعا ، ولذا فلا غرو أن يقول عن مجدد المذهب ابن حزم قولته الشهيرة لما مر على قبره : " عجا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم " ثم قال : " حقا كل العلماء عيال على ابن حزم "^(١٦٨) .

* *

هوامش البحث

- (١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تأويل مختلف الحديث ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الكتب الإسلامية ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٤٤ ، وداود بن علي الظاهري ولد سنة ٢٠١هـ/٨١٦م ، وكان يحضر مجلسه أكثر من أربعمائة فقيه يليسون الطيلسان ، توفي سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م أنظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦٣/١١ .
- (٢) محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص٥٣١ .
- (٣) عباس محمود العقاد ، التفكير ضرورة إسلامية ، نهضة مصر ، ١٩٩٨م ، ص١٠٨ .
- (٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٧٨ ، ٣٧٩ . وعن عبدالله بن قاسم أنظر نفس المصدر، ١/ ٣٧٨ ، ٣٧٩ .
- (٥) عبدالله بن الحسن النباهي ، تاريخ قضاء الأندلس ، نشر ليفي بروفنسال ، دار الكاتيب المصري، ١٩٤٨م ، ص٧٤ ، ٧٥ ؛ وانظر Miguel Asin Placios , Aben Hazam De Cordoba , Madrid , ١٩٢٧ , T.١ , P.١٣٢ - ١٣٤ . ومنذر بن سعيد هو قاضي القضاة في عهد كل من عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر ، ولد سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م ، وتوفي سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م لمزيد من التفاصيل . أنظر: النباهي ، مصدر سابق ، ص٧٥، ٧٤ .
- (٦) ابن بشكوال ، الصلة ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة - بيروت، ط١١ ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، ١/ ٢٩١ ، ٢/ ٦٧٤ ، ٣/ ٨٦٦ ، ٨٩١ ، ٩٣٧ ؛ وانظر الضبي ، بغية الملتبس ، ص٣٠٥ .
- (٧) عبدالباقي السيد، ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، رسالة ماجستير ، آداب عين شمس، ٢٠٠٤م ، ص٧٤-٨٠ .
- (٨) ابن حزم ، النبذة الكافية في أصول أحكام الدين ، تحقيق محمد سعيد البدرى ، دار الكتاب المصري واللبناني ، القاهرة - بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، ص٤٧-٤٩ .
- (٩) أنظر : جامع بيان العلم ، دار الكتب الإسلامية، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٥٣٣-٥٣٥ .
- (١٠) ابن وضاح حفيد لأحد موالى عبدالرحمن الداخل ولد سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م رحل للمشرق وسمع من شيوخ الحديث ثم عاد إلى الأندلس ليث ما حصله من أحاديث توفي سنة ٢٧٢هـ/٩٠٠م عنه أنظر ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ١/ ١٧١ ، وقاسم بن أصبغ أحد المحدثين بالأندلس من كتبه مصنف في الحديث ، وكتاب المجتبى في الفقه ، وكتاب أحكام القرآن ، توفي سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م أنظر ابن حزم ، رسالة في فضل الأندلس ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٣/١٧٩ .
- (١١) النباهي ، تاريخ قضاء الأندلس ، ص٧٤ ، ٧٥ ؛ وانظر Miguel Asin Placios , Aben Hazam De Cordoba , Madrid , ١٩٢٧ , T.١ , P.١٣٢ - ١٣٤

(١٢) أنظر: رسالتان لابن حزم أجاب فيهما عن رسالتين ؛ ص ١١٥، ١١٦؛ وانظر: بالنسبة ، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م ، ص ٢١٥.

(١٣) أنظر: رسائل ابن حزم ٣/٧٣-١٢٨.

(١٤) نقلا عن الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى ، مؤسسة الرسالة، ط ١١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ١٨/١٩٩٩. وابن العريف هو أحمد بن محمد من قبيلة صنهجة ولد بالمرية سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م و كان أحد أقطاب الصوفية في الأندلس .
انظر: الضبي ، بغية الملتئم ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧م ، ص ١٦٦.

(١٥) أنظر: رسالة في الرد على الهاتف ، ص ١٢٦. وعن محمد بن سعيد الميورقي أنظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب المصرى واللبنانى ، القاهرة بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ، رقم ٤٤٣. وابن الباربة لم نعر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر .

(١٦) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، دار الفد العربى ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ١١/٤٤٤، ٤٤٦؛ سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٩ ، ١٤١٣هـ، ١٨/٨٢، ٨١ ومكي بن أبى طالب أحد علماء التفسير و القراءات بالأندلس ولد بالقيروان سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م ومن أشهر كتبه في التفسير الهداية إلى بلوغ النهاية و إعراب القرآن ، و أبو عمرو الداني هو شيخ مدرسة القراءات بالأندلس و له في علم القراءات عدة مؤلفات منها كتاب التيسير لمزيد من التفاصيل عنها ، أنظر: المقرئ ، نفخ الطيب ، ٢/٣٣٥-٣٣٧، ١٧١/٣٣٧.

(١٧) من أشهر مناظرات ابن حزم ما وقع بينه وبين أبى الوليد الباجى حول أصول المذهب المالكى، وما وقع بينه وبين الليث بن حرفش العبدري فى مجلس القاضى عبدالرحمن بن بشر وفى حضرة العديد من فقهاء المالكية ، وكان موضوع التناظر يدور حول (القول بكتمان الإمام مالك للحديث الصحيح والناسخ ولم يظهرهما حتى مات) ، ومن ذلك ما وقع بينه وبين كبير أصحاب القياس - لم يذكر اسمه - حول حجية القياس فى مجلس حافل بالمالكية . عن ذلك بالتفصيل أنظر : ابن حزم ، الإحكام فى أصول الأحكام، دار الحديث، القاهرة، ط ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ١/٢٤٢ ، ٢/٣٨٩ ، ٣٩٠ ، عبدالباقى السيد ، ابن حزم، ص ٧٤-٧٨.

(١٨) أنظر : للنبذة الكافية فى أصول أحكام الدين ، تحقيق محمد سعيد البدرى ، دار الكتاب المصرى واللبنانى ، القاهرة بيروت ، ط ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ٧١-٨٦، ٨٢-٩٠؛ المحلى بالآثار شرح المجلى باختصار، تحقيق، عبدالغفار سليمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٨م ؛ ١/٧٨-٨٧

- (١٩) أنظر : رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين، رسائل ، ٣/١١١، ٨٨.
- (٢٠) نقلا عن الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٨/٢٠٣، ٢٠٢.
- (٢١) أنظر المحلي، ٧/٥٦٩، ٥٦٨؛ وأنظر: إحسان عباس ، رسائل ابن حزم ، ٢/١٨١ هامش (١)
- (٢٢) نقلا عن الكنتاني ، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه، مجلة الثقافة المغربية، شوال - نوالقعدة ١٣٨٩هـ/يناير-فبراير ١٩٧٠م ، ص ٩٤، ٩٥ ، وابن سهل هو أحد فقهاء الأندلس المتعصبين للمذهب المالكي تولى القضاء وله عدة مصنفات أشهرها الأحكام الكبرى .
- أنظر: النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٩٦-٩٧.
- (٢٣) أنظر الحميدي ، حذوة المقتبس ، ٢/٤٨٩-٤٩١؛ ابن بسم ، النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، مجلد اقسام ١ ص ١٦٧؛ الفتح بن خاقان ، مطمع الأنفس ، تحقيق محمد علي شوابكه ، دار عمار مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٢٨٠، ٢٧٩ ، الذهبي ، سير أعلام ، ١٨/٢٠١، ١٨٧، ١٨٤؛ السيوطي : طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبه، للقاهرة ، ط ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ٤٣٦؛ ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) ، ٣/٢٩٩.
- (٢٤) الذهبي ، سير ، ١٨/١٨٤.
- (٢٥) نقلا عن الذهبي ، سير ، ١٨/١٩٣، ١٨٧.
- (٢٦) ابن العريف ، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، تحقيق عصمت عبداللطيف نندش ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ص ٩١، ٩٣.
- (٢٧) عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص ٢١١.
- (٢٨) ابن حزم ، الفصل ، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ، ١/٣٧٦-٣٩٣ ، ٢/٢٦، ٢٥ ، ٣٤-٤٧ ، ١٦٨-١٨٦ ، ٣٦٦-٣٦٩ .
- (٢٩) عبدالواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي ، مطبعة الاستقامة، للقاهرة، ط ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م ، ص ١٥١.
- (٣٠) كان الميورقي فقيها ظاهريا محدثا عارفا بالحديث وعلمه وأسماء الرجال ، توفي سنة ٥٣٧هـ. أنظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ٣/١٩٠، ١٩١.
- (٣١) حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ص ٢٠.

(٣٢) نقلا عن الوثائقي ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب ، تحقيق جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ٢ / ٣٤١-٣٤٤ .

(٣٣) نقلا عن الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٨ / ١٨٩ ؛ وانظر : عصمت هاتم عبداللطيف دندش ، الأندلس في نهاية عصر المرابطين وبداية عهد الموحدين ، رسالة دكتوراة ، آداب عين شمس ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٣٦ .

(٣٤) كان محمد بن عبدالرحمن بن عوف (ت ٤٣٤هـ / ١٠٤٢م) فقيها مالكيًا بميوقرة ، وله مكانة مرموقة ، فلما قتم ابن حزم ميوقرة قتل مكانته ونظرائه من المالكية بمساعدة أحمد بن رشيق حاكم ميوقرة . أنظر عصام سالم سيسالم ، جزر الأندلس للمنسية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٥٠٥ .

(٣٥) نفسه ، ص ٥٠٧ ، ٤٦٨ ، ٥١٤ . ص ٥٠٧ . ومن القضايا الخلافية بين المالكية والظاهرية التي تم الجدل والمناظرة فيها مسألة من المصنف للجنب فقد ذهب المالكية إلى عدم جواز مس الجنب له ، في حين أجاز الظاهرية ذلك ، وفيمن حرم على نفسه شيئاً من المباحات ، قال للمالكية لا يلزمه من ذلك شيء ما عدا الزوجه ، وقال الظاهرية لا يلزمه شيء من ذلك ، وفيمن أصر ولم يستطع التفقة على زوجته قال المالكية يفرق بينهما ، وقال أهل الظاهر لا يفرق بينهما ، وفي شهادة العبد رفضها المالكية وأجازها للظاهرية ، وفي حد العبد إذا كذب الحر فقال المالكية نصف حد الحر ، وقال الظاهرية يحد حد الحر ، إلى غير ذلك من المسائل أنظر : ابن رشد ، بداية المجتهد ، دار الفكر ، بيروت ، ١ / ٣١٠ ، ٣٠ ، ٢ / ٣٤٧ ، ٣٣١ ، ٣٩ .

(٣٦) قال ابن تومرت لعل بن يوسف (قد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة ، وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع ، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها ..) أنظر : ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب برووض القرطاس ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٢٢١ .

(٣٧) نفسه ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ؛ وتينمال قرية قديمة وقلعة منيعة بالسوس ، تقع على بعد كيلومتر واحد من الطريق الذاهب من مراكش لردانة أنظر : نفس المصدر ، ص ٢٢٤ ، هامش ٣٢٦ .

(٣٨) رسائل موحدية ، تحقيق أحمد عزاوي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيطيرة ، ط ١ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ١ / ٤٣ .

(٣٩) نفسه ، ١ / ٤٤-٤٧ . وقد سمي المهدي أتباعه بالموحدين لاتباعهم في نظره عقيدة التوحيد الخالص ، واستصبح كلمة التوحيد بعد ذلك ذات مدلول سياسي بمعنى الخضوع لدولة الموحدين .

(٤٠) أنظر: رسائل موحدية، ١/٤٨، ٤٩، عبدالله على علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٢٠٢، ٢٠١.

(٤١) ومن ذلك قوله (فمعاذ الله أن نكفر مسلما كما قالوا أو نمنع من الصلاة على أهل القبلة أو نسقط الحقوق أو العبادات بالتوبة أو نطرح أئمة الدين وعلماء الأمة، أو نرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها من غير حق وزوج، أو نخرج عن إجماع المسلمين أو نخالف أئمة المسلمين وأمرأهم . فهذه جملة ما نسبوا إلينا ولم نقل منه حرفا واحدا ولكن خرقوا ما قلنا ولبسوا به على الناس حتى أضلوا بتدليسهم كثيرا وقطعوا عن ربهم وفتنوا في دينهم) أنظر: عبدالله على علام، الدعوة الموحدية، ص٢٠٣، ٢٠٢.

(٤٢) صلاح السيد عبده رمضان، التربية الإسلامية بالمغرب الأقصى في عهد الموحدين، رسالة دكتوراة، كلية التربية ببنها، جامعة الزقازيق، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٤٣) للكناني، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه، ص٨٦.

(٤٤) عبدالمجيد النجار، المهدي بن تومرت حياته وآرؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٠٥.

(٤٥) أفتى ابن حزم بأنه إن وقع شيء من الجور وإن قل فمن الواجب أن يكلم الإمام في ذلك ويمنع منه، فإن امتنع وراجع الحق وأذن للقتل من البشرية أو من الأعضاء، وإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه، فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام كما كان لا يحل خلعه. فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره، ممن يقوم بالحق لقول الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) [سورة المائدة آية ٢]. أنظر: الفصل، ١٠٦/٣.

(٤٦) أنظر: ديوان ابن حزم، تحقيق صبحي رشاد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٦٣ المقطوعة الأولى الأبيات من ١-١٣.

(٤٧) أنظر: المحلى، ١/١٢٣-١٣٢، ١٣١، ١٢٩.

(٤٨) أنظر: رسالة في الإمامة، رسائل، ٣/٢١٤، ٢١٣؛ الإحكام، ١/٢٣٠.

(٤٩) ابن حزم، التقريب، رسائل، ٤/٩٨-١٠١؛ رسالة في الرد على الهاتف، رسائل، ١٢٢/٣.

(٥٠) نقلا عن ابن سعيد، المغرب، ١/٣٥٥.

(٥١) نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٨/١٩٩.

(٥٢) أنظر: المحلى، ٧/٤٣-٦٢.

(٥٣) للنباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٤، ٧٥.

(٥٤) حسين مؤنس، شيوخ العصر، ص٧٠-٧٢.

- (٥٥) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبدالبدیع ، مجلة معه المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ربيع أول ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، مجلد ١ ج ٢ ص ٣١٠، ٣١١.
- (٥٦) نقلا عن الحميدى ، جذوة المقيس ، ٣٧٥/١ .
- (٥٧) ابن حزم ، طوق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكي ، دار الهلال ، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ص ٢٥١.
- (٥٨) ابن الأبار ، الحلة ، ٢٠٣/١ .
- (٥٩) ياقوت ، معجم الأبناء ، تحقيق أحمد فريد رفاعى ، دار المأمون ومكتبة القراء والثقافة الأدبية، ٢٣٧/١٢ ، نوزى ، للمسلمون في الأندلس ، ٢١٣-٢١٥ ، وانظر للطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٩٣م ، ص ١٠٩ .
- (٦٠) ياقوت ، معجم الأبناء ، ٢٣٧/١٢ ، محمد أبوزهرة ، ابن حزم حياته وعصره ، ص ٤٧ .
- (٦١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٦٥ .
- (٦٢) للذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٩٦/١٨ .
- (٦٣) ابن الأبار ، الحلة للسيرة ، ١٢٨/٢ ، وانظر : عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص ٧٦، ٧٨ .
- (٦٤) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١١١، ١٢٨ .
- (٦٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٣٠/٣ ، وانظر : ياقوت ، معجم الأبناء ، ٢٤٠/١٢ . خرج ابن حزم من وسط أسرة عرفت الإسلام منذ جده الأعلى يزيد بن أبى سفيان ، وكان خلف أول من دخل الأندلس من أسرته فى صحبة الأمير عبدالرحمن الداخل ، وكان مقامه فى لبلة ، وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها للرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالانندلس فى عهد الحكم المستنصر ، ونجحت فى امتلاك قرية بأسرها هى منت ليشم . أنظر : عبدالباقى السيد ، ابن حزم ، ص ٤٦ .
- (٦٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٣ .
- (٦٧) ابن الأبار ، الحلة للسيرة ، ٣٤/٢ ، ٧١، ٧٠ .
- (٦٨) بالنتيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢١٥ .
- (٦٩) للضبى ، بغية الملتبس ، ص ٨١ .
- (٧٠) ابن بشكوال ، للصلة ، ٦٧٤، ٣٤٠/٢ .
- (٧١) نفسه ، ٩٣٧، ٨٦٦/٣ .
- (٧٢) هناك كتب كثيرة صدرت عن ابن تومرت من أفضلها ما كتبه الدكتور عبدالمجيد النجار كتب كتابين أحدهما عن فكره والآخر عن تجربته الإصلاحية ، وكتب عنه عبدالله علام عند حديثه عن عبدالمؤمن بن على ، وكتب عنه البيهقي تلميذ ابن تومرت وإن كان قد اشتط فى أمور ،

وكتب عنه ابن أبي زرع في روض القرطاس ، وكتب عنه الذهبي في سير اعلام النبلاء وفي تاريخه ، وغير ذلك كثير

(٧٣) من الأمور التي روجت ضد المهدي وكان من جملة من روجها واحد من أساتنتي المتخصصين في المغربيات إذ قال عنه أن قوام مذهبه العقيدة الشيعية وهذا باطل ، ومن طالع كتاب ابن تومرت أعز ما يطلب علم أن الرجل ليس له من التأثير الشيعي إلا قول العصمة ، وقوام نظرية الشيعة في الإمامة هدمها ابن تومرت لما اعترف بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن بن علي ، وقال مدة الخلافة بعد النبي ثلاثين عاما فهذا ضرب لصميم العقيدة الشيعية ، وليت من يروج الاباطيل يطلع على كلام الرجل أولا .
(٧٤) أنظر : العبر ، ١١ / ٤٦٦ .

(٧٥) لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر : عبد الباقي السيد عبد الهادي ، الظاهرية والمالكية وثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، أطروحة نكتورة مخطوطة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ص ١٩١ وما بعدها .

(٧٦) توفي رحمه الله عن عمر يناهز السبعين تقريبا ... يوم السبت ٢٦ شوال ١٤٣٢ هـ / ٢٤ سبتمبر ٢٠١١م طاولا صفحة أمضاها في جهاد متصل في رحاب العلم لقد كان هذا الرجل رحمه الله آية من آيات الله في العلم وفي التحريض عليه والبحث عنه ... ولقد منحني الله من القرب منه والصلة به ما لم يمنحه لغيري إلا ما رحم ربي فلقد لازمته رحمه الله قرابة الاربعة عشر عاما درست على يديه في السنة التمهيدية للماجستير ... واشرف على في الماجستير وصمم أن يكون الموضوع عن ابن حزم لأجل تصميمي ثم اشرف على في الدكتوراة وصمم أيضا أن يكون الموضوع عن الظاهرية والمالكية لأجل تصميمي ولقد كان محرضا لي للمضي قدما في طريق العلم بكل صنوفه واشكاله ولقد جرى لي معه من المواقف ما يعجز القلم واللسان عن ذكرها في موقف كموقفي هذا ... فالرجل كان والدا لي رحمه الله قبل أن يكون استاذًا وكنت إذا ما زرتة في بيته وأردت أن أكتب شيئا لأجسني على مكتبه الذي كان يعتز به اعتزازا منقطع النظير لأنه كان لوالدته التي كان يحبها حبا شديدا الاستاذة الدكتورة سعاد متاھر رحمه الله ... أشهر استاذة الآثار الإسلامية في مصر والعالم العربي وأول عميدة لكلية الآثار بالقاهرة لا أملك إلا أن أدعو له بالرحمة والمغفرة وأن ينور الله ضريحه ويفسح له في قبره وأن يرفع في العالمين ذكره وأدعو كل أحبابي بالدعاء له

(٧٧) المقرئ ، نفع الطيب ، ٣ / ١٩٥ .

(٧٨) للناصرى ، الاستقصا ، ٢ / ١٤٥ ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١١٧ .

(٧٩) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٦٥ ، المراكشي ، المعجب ، ص ١٩٩ .

(٨٠) للمراكشي ، المعجب ، ص ٢٣١، ٢٣٢ ، ابن سمالك العاملي ، الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار الماثورة ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، ١٩٨١م-١٩٨٢م ، مجلد ٢١ ، ص ٦١، ٦٢.

(٨١) للمراكشي ، المعجب ، ٢٣٣، ٢٣٤.

(٨٢) اعتمد ابن حزم فى فتواه على قول الرسول (إذا بويع لخليفتين فالقتلوا الآخر منهما) أنظر : ابن حزم ، المحلى ، ١/٦٦ ، ٨/٤٢٣ ، الفصل ، ٣/٤٠٥ ، والحديث رواه مسلم فى كتاب الإمامة من صحيحه .

(٨٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٧/١١، ١٢.

(٨٤) المنونى ، حضارة الموحدين ، ص ٢٥، ٢٦، ١٢٥، ٢١.

(٨٥) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ٢٢٨.

(٨٦) ابن حجر الهيتمي ، الفتاوى الحديثية ، نقلا عن المنونى ، حضارة الموحدين ، ص ٨٣ .

(٨٧) ليوراس العسكرى ، الخبر المغرب ، نقلا عن المنونى ، حضارة الموحدين ، ص ٨٣ ، هامش ٨.

(٨٨) نقلا عن عليش ، فتح العلى للمالك فى الفتوى على مذهب مالك ، دار الفكر ، (د.ت) ، ١/١٠٣، ١٠٢.

(٨٩) أنظر : للمدونة للكبرى برواية سحنون بن سعيد، دار صادر ، بيروت ، ١/٩١.

(٩٠) الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص ٦٦٩.

(٩١) أنظر : المعجب ، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٩٢) للمراكشي ، المعجب ، ص ٢٣٢.

(٩٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ٢٢٧ ؛ وأنظر : عزلاوى ، رسائل موحديّة ، ١/٤٩٤، ٤٩٥، ٤٨٣، ٤٢٤.

(٩٤) للمراكشي ، المعجب ، ص ٢٧٨-٢٨٠.

(٩٥) ابن الأبار ، للتكملة ، ٢/٨٨٥ ؛ وأنظر: النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١١٧ ؛ أحمد بكير ، المدرسة الظاهرية ، ص ٦٤.

(٩٦) للناصرى ، الاستقصا ، ٢/٢١٧.

(٩٧) توفيق الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٩٨) ابن الأحمر ، بيوتات فاس ، ص ١٩ ، وابن طاهر من أهل مدينة فاس كان متصوفا اتصل بالمنصور الموحدى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م فحظى عنده ، وكان عالما بأصول الدين وأصول الفقه ، ومسائل الخلاف ، ولى قضاء الجماعة للمنصور ، ثم ولى قضاء الجماعة للناصر بعد

- أبيه ولم يزل كذلك حتى وفاته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م أنظر : ابن أبي زرع ، النخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م ، ص٤٨.
- (٩٩) حسين مؤنس ، عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبدالله المعروف بالخليفة الناصر الموحدي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٠م ، مجلد ١٢ ، ج٢ ص١٤٨ ، المنوني ، حضارة الموحدين ، ص٣٧ ، أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٠٩ ، ديلاسي أوليري ، الفكر العربي ومكانته في التاريخ ، ترجمة تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٧م ، ص١٧٤ ، ١٧٢ ، سعد زغلول عبدالحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣م ، ص٢١ ، محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج٣ طور الانتهاء ، القسم الأول ، ص١٧٥ ، عادل يحيى عبدالمنعم ، العلم والتعليم في المغرب العربي من الفتح إلى نهاية دولة الموحدين ، رسالة ماجستير ، بنات عين شمس ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، ص٧٥.
- (١٠٠) ابن اللطان ، نظم الجمان ، ص٤ ؛ عبدالله العروى ، تاريخ المغرب ، ترجمة نوقان فرقوط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص١٧٦ ؛ الغلبزوري ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٢٣.
- (١٠١) محمد بن تومرت ، أعز ما يطلب ، ص١-٥ ، ١١-١٨ ، ١٦٣-١٦٥ ، ٢٥٨-٢٦٦ ؛ وانظر : الغلبزوري ، المدرسة الظاهرية ، ص٦٣٦-٦٦٠.
- (١٠٢) ابن تومرت ، مصدر سابق ، ص٣١٣-٣٧٦.
- (١٠٣) عبدالمجيد النجار ، المهدي بن تومرت ، ص٣٦٢.
- (١٠٤) أنظر : شرح رقم الحل ، تحقيق عدنان درويش ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٠م ، ص٥٧.
- (١٠٥) أنظر : المعيار المغرب ، ٢/٣٦١.
- (١٠٦) اسماعيل بن الأحمر ، بيوئات فاس الكبرى ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢م ، ص١٩ ؛ وانظر : المنوني ، حضارة الموحدين ، ص٣٧، ٣٨.
- (١٠٧) العباس بن إبراهيم ، الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٧٤م-١٩٧٧م ، ٨/٣٩٦.
- (١٠٨) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ٢٥٥ ، الناصري ، الاستقصا ، ٢/١٢٥ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، دار الفكر ، ٤/٣٢٢.
- (١٠٩) المراكشي ، المعجب ، ٢٣١ ؛ وانظر : النويري ، نهاية الأرب ، ٢٤/٣٣٨، ٣٣٩ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٧/١١ ، المقرئ ، نفع الطيب ، ٣/١١٤.

- (١١٠) قال صاحب بيوتات فاس عن الناصر بن المنصور " كان كأبيه لا يحكم إلا بمحض الظاهرية ، وأن الفقهاء من المالكية أنكروا عليه ذلك وقالوا : الحق هو مذهب المدونة فأمر بجمع ما وجد من النسخ منها بالمغرب وإحراقها فأحرقت عن آخرها " أنظر : إسماعيل بن الأحمر ، بيوتات فاس الكبرى ، ص ١٩ ؛ الغليزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص ٤٥٨ .
- (١١١) للمراكشى ، المعجب ، ص ٣٠٨-٣١٠ ؛ وأنظر : بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢٣٨ .
- (١١٢) للنباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١١٠ . وجزيرة شقر تقع بين بلنسية وشاطبة ، ومدينة جيان كوره تتصل أحوزها بأحواز كوره للبيرة ومسافة ما بينها وبين قرطبة خمسون ميلا أنظر : ابن غالب ، فرحة الأندلس ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
- (١١٣) للمقرى ، نفح الطيب ، ٣٦٣/٢ ؛ وأنظر عبد الحليم عويس ، ابن حزم ، ص ٣٥٠ ، ٣٦٠ . وعن ابن العربي أنظر : أسين بلاسيوس ، ابن عربى حياته ومذهبه ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٥-٩٩ .
- (١١٤) للمقرى ، مصدر سابق ، ٣٦٣/٢ ؛ وأنظر : بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢١٩ .
- (١١٥) أحمد بكير ، المدرسة الظاهرية ، ص ٥٩ ؛ وأنظر : أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٢ م ، ٩٥،٩٦/٣ ؛ خديجة الحديثى ، أبوحيان النحوى ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦ م ، ص ٣١٩ .
- (١١٦) توفيق الغليزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص ٣٠٣ .
- (١١٧) ابن الأبار ، التكملة ، ٦١٦/٢ ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، ٣١١/٢٢ .
- (١١٨) ابن العربى ، العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٢١ ؛ وأنظر : المقرى ، نفح الطيب ، ٣١/٢ ، ٢٥ .
- (١١٩) المقرى ، نفح الطيب ، ٥٨،٥٧/٢ ؛ وأنظر : محمد الرشيد ملين ، عصر المنصور الموحدى ، ص ٢٥٤ .
- (١٢٠) الغليزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص ٧١١ .
- (١٢١) ابن العربى ، العواصم من القواصم ، تحقيق عمار الطالبي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ٣٣٧،٣٣٦/٢ .
- (١٢٢) نقلا عن الكنانى ، مؤلفات ابن حزم ، ص ٩٧ .
- (١٢٣) أنظر : المعجب ، ص ٤٩ .
- (١٢٤) أحمد بكير ، المدرسة الظاهرية ، ص ٦٤ .
- (١٢٥) الناصرى ، الاستقصا ، ١٩٩،١٩٨/٢ .
- (١٢٦) الونشريسي ، المعيار ، ٣٤١/٢ .
- (١٢٧) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٦،٢٥٥ .

- (١٢٨) إسماعيل بن الأحمر ، بيوتات فاس الكبرى ، ص ١٩ .
- (١٢٩) للمراكشي ، النزيل والتكملة ، السفر الأول ، القسم الأول ، ص ٤٠٨ .
- (١٣٠) الغليزوري ، المدرسة الظاهرية ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٦٣ .
- (١٣١) أنظر : المعجب ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
- (١٣٢) نقلا عن المقرئ ، نفح للطيب ، ١١١/٣ .
- (١٣٣) ابن الأحمر ، بيوتات فاس ، ص ١٩ .
- (١٣٤) العباس بن إبراهيم المراكشي ، الإعلام بمن حل مراكش وأغات من الأعلام ، ٣٩٦/٨ .
- (١٣٥) أنظر : بيوتات فاس ، ص ٢٠ ، ٢١ . ويعقوب هو ابن عبدالحق المرينى ولد سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م وتولى الحكم بعد وفاة أخيه أبي بكر سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وهو الذى قطع مملكة بنى عبدالمؤمن ومحي آثارهم ، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك بنى مرين أنظر : ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص ٨٥ .
- ومن عهد يعقوب المرينى بدأ التقليد يعود ثانية ، وانطقات جذوة التجديد والاجتهاد ، وجدت كل فروع المالكية ونسى العلماء الأصول ثانية حتى قال قائلهم وهو أحمد بن عمر المزكلى بفاس ' ما نزل من السماء حكم إلا وهو فى المدونة' أنظر : ابن القاضى المكناسى ، جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٣م ، ١٢٧/١ .
- (١٣٦) أنظر : القوانين الفقهية ، دار القلم ، بيروت ، ص ٢٧٦ .
- (١٣٧) أنظر : سير أعلام النبلاء ، ٣١١/٢٢ .
- (١٣٨) أنظر : الاعتصام ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ٢٥٦/١ .
- (١٣٩) أنظر : الاعتصام ، ١٧١/١ .
- (١٤٠) أنظر : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١١٨ .
- (١٤١) أنظر : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، ٢٦٠/٢ .
- (١٤٢) أنظر : المعيار المغرب ، ٣٦١/٢ .
- (١٤٣) أنظر : شذرات الذهب ، ٩٦/٥ .
- (١٤٤) أنظر : الرد على من يقبض فى صلاة الفرض ، مخطوط ضمن مجموع الخزائنة للعامة بالرباط ، رقم (١٧٢٤د) ، ورقة ٦٠ ، ٦١ .
- (١٤٥) أنظر : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢٣٨ .
- (١٤٦) أنظر : حضارة الموحدين ، ص ٣٧ .
- (١٤٧) أنظر : عصر المرابطيين وبداية الدولة الموحدية ، ص ٣ ، ٢ .

(١٤٨) أنظر : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، دار التراث ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ ،
١٧٢/٢ .

(١٤٩) الغليزوري ، المدرسة للظاهرية ، ص٦٨٥، ٦٨٦ .

(١٥٠) أنظر : قيام دولة الموحدين ، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص٢١٤ .

(١٥١) أنظر : ابن حزم حياته وعصره ، ص٥٧٧-٥٨٢ .

(١٥٢) أنظر : ابن حزم خلال ألف عام ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ،

١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ٩٠، ٨٢/٢ .

(١٥٣) أنظر : ابن حزم الأندلسي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ص٢٠٥ .

(١٥٤) أنظر : ابن حزم الظاهري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ،
ص١٦٢ .

(١٥٥) أنظر : تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار الجيل ، بيروت ،
ط١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص٢١٢ .

(١٥٦) أنظر : ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،
(د.ت) ، ص٩٨ .

(١٥٧) توفيق الغليزوي ، للمدرسة للظاهرية بالمغرب والأندلس ، ص٧، ٧ .

(١٥٨) أنظر : الرود على ابن حزم بالأندلس والمغرب من خلال مؤلفات ابن حزم ، مقال بمجلة
الأحمدية ، دبي ، محرم ١٤٢٤هـ / مارس ٢٠٠٣م ، عدد ١٣ ، ص٣١٩ .

(١٥٩) عبدالله علام ، الدولة الموحدية ، ص٣١٢ .

(١٦٠) المراكشي ، المعجب ، ص ٢٧٨ - ٢٨٠ ؛ وأنظر ، خوليان ريبيرا ، التربية الإسلامية ،
ترجمة للطاهر مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٤م ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(١٦١) محمد بن تومرت ، أعز ما يطلب ، نشر جولد زيهر ، الجزائر ، ١٩٠٣م ، ص ١٦٣ - ١٧٣ ؛
وأنظر : Goldziher, le Livre le MohammedI ibn Toumert Mahdies, Al ger, ١٩٠٣, p٥٠ .

- ٧٠ -

(١٦٢) المراكشي ، مصدر سابق ، ص ٢٧٩ ؛ وأنظر ، عبدالحليم عويس ، ابن حزم الأندلس
وجهوده في البحث التاريخي والحضاري ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط٢ ،

١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص ٢٥٠ - ٢٥٤ .

(١٦٣) المراكشي ، السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ؛ وأنظر ، أحمد رمضان ، الخلافة في الحضارة
الإسلامية ، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص
١١٥ ، ١١٦ .

(١٦٤) أحمد بكير، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب ، دار قتيبة ، بيروت — دمشق ، ط١ ،
١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(١٦٥) ابن حزم ، الفصل ، ١٢-٣/٢ ، وانظر : أحمد رمضان ، الخلافة ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(١٦٦) ابن اللقطان ، نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى ، منشورات كلية الآداب والعلوم
الإنسانية جامعة محمد الخامس ، الرباط ، (د.ت) ، ص ٤ ؛ وانظر : الكنانى ، مؤلفات ابن حزم ،
ص ٨٦ ؛ الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، دار ابن حزم ، الرياض ، ط١ ،
١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ص ٦٢٣ .

(١٦٧) المراكشى ، الذيل والتكملة ، تحقيق محمد بن شريفه ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ،
١٩٨٤ ، القسم الأول ، السفر الأول ، ص ٢١٨-٢٢٢ .

(١٦٨) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٣٢ ؛ وانظر : المقرئ ، نفح الطيب ، ٢٢٢/٤ .

* * *